www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

نعمان اسماعيل عبد القادر

في مجموعته القصصية الجديدة

الوداع الصامت

الطبعة الأولى

هذه المجموعة

تحتوي على قصص من واقع المجتمع العربي في الداخل.. واقع تماثل بشخوص القصة وأحداثها مع التطورات والأحداث الحقيقية اليومية.وهذه المجموعة تختلف عن سابقتها في عددها ومضمونها وأسلوبها. كما تُرجم بعض منها إلى اللغة الإنجليزية قام باختيارها وترجمتها الأستاذ حسن أحمد صرصور. تلك القصص فيها تعبير جليٌّ عن معاناة المجتمع وأفراده ، لذلك فهي تعرض صراعات داخلية وخارجية. وقد تناولت قضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وإنسانية جعلها تدور في دائرة كبيرةٍ متداخلٌ بعضها في دوائر أخرى إلى حد ما.قصص نُشِرت غالبيتها في الصحف والمجلات المحلية الأسبوعية واليومية وفي مواقع الأدب على الشبكة العنكبوتية. عامًا تقريبًا.

أطفال الإشارة الضوئية

الطريق التي اعتدت أن أسلكها في سفري من قريتي إلى "الناصرة"، هي أقصر الطرق. ولا تستنزف من وقتي إلا ساعةً واحدةً وقد تزيد قليلا.. ومع ذلك فإن أنتَ سلكتَ هذه الطريق لا بد لك من المرور من وادي عارة ومشاهدة بعض القرى العربية المحاذية للخط الأخضر.. ولا بد لك أيضًا من التوقف أمام إشارات المرور الضوئية المنتصبة في المفترقات وهي ترقب السيارات والمسافرين في غُدُّوهم ورواحهم.. ثم لا بد أن ترصدَ عيناك أطفالا صغارًا لم يتجاوز بعضهم الثامنة بأسمالهم البالية ووجوههم الكالحة ونفوسهم البريئة يستحمون تحت شلال أشعة الشمس المحرقة يخترقون طوابير السيارات في جرأة وهم يطلبون العون والمساعدةً. فإن أعطيتَهم دعوا الله لك بالفلاح وجبر الخاطر وشكروك ببسمة تنم عن رضاهم بالواقع وقبولهم بالقدر الذي أهملهم ووهب جل اهتمامه لغيرهم من أبناء يعقوب وإسحاق.. وإن نهرتَهم تركوكَ ومضوا إلى غيركَ في همّةٍ ونشاطٍ علّهم يحصلون على شيءٍ قد يعود عليهم نفعه...أطفالٌ قستْ عليهم الدنيا فأتعستهم وأجبرتهم على التسول فانصاعوا لها حتى لا يهزمهم الجوع ثم يرحلون عنها.. وفي ذات صباح قبل أن أخرج إلى الناصرة برفقةِ صديقي "نايف"، عقدتُ العزم على أن أقدِّم شيئًا لمن أصادفه في طريقي من أولئك الأطفال.. وحال وصولي إلى مفترق "كفر قرع" جلتُ ببصري في ذاك المكان فشاهدتُ طفلين، أحدهما انزوى يستظل بجذع الإشارة ممسكًا بيده اليمنى قنينة ويجرع الماء من فوهتها.. والآخر يقضم قطعة من الحلوى يبدو أن أحدهم قد تصدق بها عليه. لكنْ لم تتح لنا الإشارة الخضراء المجال للتوقف، فأُجْبِرْنا على متابعة سيرنا باتجاه "أم الفحم". وحين توقفنا أمام الإشارة التي لاحَ لنا ضوءها الأحمر من بعيد، تقدم مني أطفال ناولتهم من النقود مقدار ما يكفي كل منهم لشراء وجبة واحدة أو وجبتين.. وقفتْ خلفهم طفلة مترهّلة الثياب.. تلبس حذاءين متفتقين يبدو أنهما قد تجاوز استعمالهما ستين سنةً، تظهر من جوانبهما أطراف أصابعها.. ودون أن تنبس بكلمة، أرسلتْ إليَّ نظراتٍ حزينةً خجولةً تبعث في النفس روح الحسرة وتحفرُ في القلب أخاديد الشفقة..

وتمتمتْ بكلماتٍ يبدو أنها حفظتْها من غيرها عن ظهر قلبٍ، فيها من الأدعية والثناء على جبر الخواطر.. وحفظ الأهل

والأقارب.. فتذكرت ابنتي التي حين تركتها رأيتها تحتضن دميتها ثم تلثمها في خدها فتضعها في سريرها..-ما اسمك يا صغيرتي؟وبصوت شاحب ينم عن

حيائها أجابت:-منال...- تفضلي يا منال... ثم تناولتْ مني يدُها الصغيرةُ ورقةً نقديةً، وغرفتْ لي من أدعيتها بعد أن ارتسمت البسمة على ثغرها الصغير الداكن.. وكادت تطير من شدة فرحها على مكسبها الكبير وحظها الوافر..

تنبه "نايف" من غفلته وهدر قائلا بصوت غليظٍ وطبعٍ جاف:

- قبح الله أولئك الآباء.. يتلذذون في الفراش حين يزرعون في أرحام أمهاتهم بذورًا بشريةً لا يعرفون عواقبها..ثم تنبتُ أطفالا أشقياء كهؤلاء يداسون كالصراصير تحت وطأة الحياة كي يكافحوا من أجل لقمة العيش.. ولا يتعلمون في المدارس، ثم لا يشمون من رياحين الطفولة.. لقد حُرموا من كل شيء..

- في اعتقادي يا "نايف" أنهم قدموا من منطقة "جنين "

ومخيمها..كان الله في عونهم.. تشردوا من قراهم ومدنهم عام ثمانية وأربعين.. وها هم الآن يتسولون مثل أبناء الغجر.. أتدري يا "نايف"! لو تصدَّق أثرياء العرب بقرش واحد في الشهر لما وجدت فقيرًا في هذه الأمة.. أين أموال الزكاة؟ أين البترول؟ أين المساعدات الخارجية؟ بالطبع تجف في طريقها الصحراوية...

لم يطل بنا الأمر في الناصرة.. ثم قفلنا راجعين نتأفف من قيظ تموز وبُعدِ المكان وضيق الوقت. ولعل الفاجعة الكبرى التي حدثتْ كانت تحلّقُ في سماء المنطقة وتنتظرنا بازدراء.. وكانت تنتظر عقارب الساعة لتشير إلى الثانية ظهرًا فأمهلتِ الطفلة إلى حينِ وصولنا كي توقعها قريبًا منا.. أو لعلها كانت تنتظرني، أنا ذاتي، حتى تباغتني بصدمة قد تترك في نفسي أثرًا لا ينجلي لو صُبَّتْ عليه مياه بحيرة طبريا.. ألأنّي شديد التأثر وجياش المشاعر وبكّاءٌ في المواقف؟؟ ربما..

سمعتهم ذات مرةٍ يقولون: حين يموت طفلٌ، تعبِس الدنيا حزنًا، وتعتصر السماء ألمًا، ويبكي القدر ندمًا، وتسقط الحروف من الكتب غضبًا..

لما لا تهتز الأرض حين تسمع أنين "منال" وهي ملقاة على الرصيف تصارع القدر على ثوانٍ بقيت لها في حياتها.. ليكن أنينها صرخةً! ولتكن إشارتها شاهدًا! وليكن دمها نهرًا! لقد أرادت أن تعبر الشارع لتلحق بابن عمها لكن القدر كان أسرع منها فتلقف روحها التي فاضت بعد أن صدمتها سيارة جاءت مسرعة.. احتشد أبناء الإشارة يستطلعون الخبر مقطبين وجوههم في وجوم.. واندفع بعض المسافرين ممن تركوا مركباتهم في عفوية لعلهم يمدّون لها يد العون والانتشال..

-هل تعرفونها يا أولاد؟

وقالوا وهم يشيرون إلى الطفل الواقف على يساري:

نعم هي ابنة عمه..

وأردف آخر بصوت كئيب:

- مات أبوها قبل خمس سنوات واعتُقل أخوها منذ ثلاث سنوات..

وجاءت لتترزّق معنا منذ أسبوع فقط..

ولما رُفعت الجثة وانكفأ القوم وعادت سيارة الإسعاف تصفّر من جديد، هتف "نايف" بامتعاضٍ ونبرات تنذر عن انزعاج عميق:

تبًّا لك يا دنيا.. أي رزقٍ هذا الذي يعيش منه هؤلاء الأطفال؟ آهٍ عليك أيتها الإنسانية.. أين أنتِ أيتها الحرية؟؟ آهٍ على من مات وترك الدنيا للبائسين والضعفاء والكادحين..

مجزرة في القرية

كان الجميع في البيت ينتظرون عودة أخي "خالد"، من عمله على أحرّ من الجمر.. وتطبيق نظام منع التجول قد بدأ بعد أن دقت الساعة الخامسة مساء يوم الاثنين الأخير من أكتوبر.. وكم كان الذعر بشعًا عندما دبّ في قلوب أهل القرية لحظة نادى المنادي مبشرًا بالوعد المشؤوم.. الحاضر يبلغ الغائب.. على الجميع أن يهتموا بإبلاغ أبنائهم وأقاربهم الغائبين بالعودة فورًا إلى بيوتهم.. لديكم مهلة مدتها ساعتين من الآن..

ألا ليت ذلك اليوم لم يحضر.. وليت النهار لم يطلع.. وليت المرّ لم يخلق.. وليت الألم صار ترابًا.. أيعقل أن يعتصر القوم الآمنين ردحًا من الزمن؟؟ لقد اتفق الفزع والجري والصراخ على غزونا في عقر دارنا.. ولم أر إنسانًا وقلقًا في مثل والدي في ذلك الحين.. قلقه الغريب مزعجٌ جدًا.. وقلقه لم يخلق من فراغٍ .. لقد أحسّ أن كارثةً ما ستحلّ في ذلك المساء بقريتنا فتصيبنا جميعًا.

خمس دقائق بعد الخامسة.. ثمة إطلاق نار سمع من الجهة الشمالية.. من منطقة المسجد وسط القرية.. التي هجرناها بعد أن حلّ موسم قطف الزيتون.. غمغم أبي في صوت متقطع وقد ترقرقت عيناه بالدموع:

- الله يستر!!يا ناس كل العالم في بيوتها، و"خالد" لم يعد بعد... ترى لماذا تأخر؟

وكانت الأبواب المصنوعة من ألواح خشبية ثقيلة قد أُوصدت جيدًا ثم أُسندت بقطع من جذوع الزيتون الكبيرة آملين أن لا يتمكن الجنود من اقتحامها.. وكلما انطلقت رصاصة أسرعنا لنلتصق بالأسوار الحجرية العالية التي تحيط بحوشنا والمحملة بحزم من الحطب الذي جمعناه من كرومنا المقطوفة حديثًا.. وظل صوت أزيز الرصاص يرتفع شيئًا فشيئًا.. عندها أدركنا أن حارتنا قد امتلأت بالجنود المدججين بالأسلحة.. والفزع الغاشم أخذ مأخذه من هؤلاء الأطفال الذين حين نظرت إليهم وجدتهم يصرخون ويرجفون. وانشغلت النساء في التخفيف من وطأة روعهم وحاولت إسكاتهم حتى لا يُلفت انتباههم إلينا. لم يجرأ أحد منا على الخروج إلى الشارع، ولا النظر إلى الخارج من على الدرجات التي تؤدي إلى سطح المنزل بل ولا حتى النظر من بين شقوق ألواح الباب الخشبي..

أي صراخ هذا الذي سمعناه ينبعث من وسط الحارة حين خمد صوت الأطفال وتكورا في زاوية من زوايا البيت مع أمي.. صراخ غير اعتيادي مبهم.. في بادىء الأمر ظننته عواء كلب.. ولكن سرعان ما أدركت أنه صراخ صبي متواصل لا ينقطع.. وكيف يمكن لأحد أن يبقى في مكانه مختبئًا إذا سمع مثل هذا الصراخ.. هرولنا نستطلع الخبر من شقوق الباب.. إذ كان هذا " يوسف الأخرس" ابن الحاج "سليم".... هذا يعني أنه لم يسمع النداء.. ولا يدري ما يدور حوله.. نعم هو عينه، صبي في العاشرة من عمره.. رفع يديه إلى أعلى مستسلمًا وصرخ بأعلى موجة في صوته طالبًا من ذلك الجندي الذي جلس على ركبته اليمنى وقد صوب سلاحه نحوه أن يعفو عنه ويتركه في صممه وخرسه.. ولا زلت أذكر تلك الحالة التي اندفع فيها الأخرس المرتعد الباكي، بعد أن أُطلق سراحه، نحو بيت عبد الله المجاور وأخذ يطرق بابه بعنف وعزم وإرادةٍ مِن لا يريد أن يموت..

ثم فُتِحَ الباب واختفى الأخرس عن الأنظار.

إذا كانت هذه حال الأخرس فكيف تكون حال أخي "خالد" إذا وجدوه في الشارع راجعًا من عمله وهو لا يدري بما نحن فيه..

مسكين "خالد".. لا يدري ماذا ينتظره.. ثم بكت أمي وبكت أخواتي.. وبكى أبي .. فعلا بكى أبي . إنها المرة الأولى التي أرى فيها أبي يبكي..

خيّم الليل على البلدة.. ليل ليس كمثله ليل. فيه من الوحشة بكل أصنافها. وفيه من القهر بكل معانيه.. وفيه من الظلام الذي جاءنا بأول الغيث لهذا العام.. ثم تأكدنا ممن وصل بيته من الجيران في غفلة المجندين أن القتل قد زرع في شوارع القرية.. أُنتزعتْ أرواح الكثير من البشر.. وحُصد من جاء متأخرًا إلى بيته.. وتربَّع العويل على البيوت جميعها، ولم تنم الدنيا في تلك الليلة..وغرد البوم..ورقص الغراب طربًا في حفلة الموت تلك..

لم تهدأ العاصفة إلا في الصباح.. وإطلاق الرصاص لم ينقطع إلا مع انبثاق أشعة الشمس.. وبكاء النسوة والعذارى ما زال مستمرًا حتى الآن .. ولعل مناداة الناس على بعضهم من وراء الجدران ينم على حرصهم لمتابعة التقاط الأحداث عبر الأثير مباشرة من فوق الجدران أولا بأول.. فمن أين تأتي

الأخبار؟؟ فلا خبر يذاع عبر أجهزة المذياع القليلة التي كانت في حوزتهم في ذلك اليوم إلا أخبار التعبئة والحرب.. ولا سمع أحدهم رنين هاتف في حياة القرية.. ولم يحن بعد موعد خلق التلفاز ..

ومع تلكؤ النهار وانبعاث رائحة الأرض المبتلة بالأمطار الأولى.. وصل جارنا صالح إلى بيته خلسةً يحمل جعبته البشرى.. لكنه لم يستطع أن يتحدث.. لقد عقد لسانه.. ووجهه الشاحب يوحي أن الأمر جد وخطير.. وعيناه المنهكتان تدلان على أن المصاب جلل.. وثيابه الملطخة بالدماء تدل على أن الشلال كان غزيرًا..

- مالك يا صالح انطق يا رجل!!
- ابتعدوا عني.. دعوني في حالي...
- ولكن أخبرنا ماذا جرى؟

لم يتمالك الرجل نفسه واندفع يبكي مثلما يبكي الأطفال ويقول كلامًا متقطعًا:

- قنوات... من الدم... تسيل في الشوارع. قضوا على أهل البلد... لقد رأيت ابنتي "مريم" بين الجثث.. لقد مزق الرصاص

جسدها وغرقت في دمائها.. احتضنتها إلى صدري وقبلتها....

اكفهر وجه أمي البشوش وانكسر قلب أبي الحديدي..واهتزت مشاعر ي الصامتة واضطربت أحاسيس الفلاحين البسطاء.. وطفحت نفوسهم بمشاعر الحزن والأسى..ثم تلاشت المفاهيم وتهيأ كل بيت لقبول الواقع المرير بعد أن أمتزج لون الشمس بلون الزمان حتى بدا قرصها رماديًا لا يُطاق..

لم يكن حصارنا ليدوم إلى الأبد..إذ قبل أن يفك القيد اقتيد أبي وغيره لتشخيص الأموات.. وأُطبق على تسعة وأربعين شخصًا.. كلهم شهداء.. نعم شهداء.. ولكن لم يكن "خالد" بين هؤلاء الشهداء.. لقد أصبح في عداد المفقودين.. واختفى أثره عن الدنيا.. غم على غم حطم النفوس وأحرق الأخضر واليابس.. ونواح نساء القرية الجالسات في وسط الحارة ملأ الفضاء.. وعويل الفتيات يبعث في النفوس حرقة شديدة..كان منظرهن مؤثرًا.. لو قدرت دموعي التي ذرفتها حين شاهدتهن يمزقن ثيابهن ويعفرن التراب على رؤوسهن، لفاقت حجم ما في البحر والمحيطات من مياه.. لم تكن الدنيا لتشارك النسوة وتذرف دموعها إلا في تلك الليلة التي أجهزوا فيها على الشهداء.. لقد سبقت الجميع في البكاء.. ابكي يا عين! ابكي!! وخرج الرجال مكسوري الخواطر مكسوفي الوجوه ينظرون بعيون غاضبة إلى عنان السماء وهم يتضورون لعل الشكوى تصل إلى رب السماء..آهٍ عليك يا أيتها الدنيا الفانية... آهٍ... آهْ... لقد بلغتْ القلوب الحناجر..إلى من تكلينا.. إلى قريب يتجهمنا.. أم إلى سفاح تملك أمرنا.. لقد كانوا بين ظهرانينا قبل ثلاثة أيام.. وها هم اليوم بين ثنايا التراب.. لقد تفتقت القيم.. وتهرأت النفوس.. ونفد البحر..

وعاد "خالد".. لكنه في حالةٍ يرثى لها.. عاد "مضبوعًا" شارد الذهن، يتمايل كالثمل ولا يقوى على النطق والحركة.. إذ سمع يوم الواقعة أثناء عودته من عمله أصوات الرصاص فلجأ إلى الكروم القريبة.. أربعة أيام بلياليهن قضاها مختبئًا في بئر الخروب كأنه ضبٌّ مذعور.. كان يخرج في الليل ليأكل من أوراق الشجر.. وينام في جحره طوال النهار.. واندفعت إليه أمي تحتضنه وتقبله مغمغمةً وهي ذارفةً دموعها بغزارة: لقد مات خالك يا "خالد".. ومات عمك وابن عمك.

نِعْمَ الرجلُ أنت يا "أشرف"

لم يتعوّد "أشرف" أن يجد نفسه في بيته بلا عمل شهرين متتاليين.. وكان معتادًا أن يغدو كل صباح إلى عمله في الساعة السادسة صباحًا متوجهًا إلى عمله في مدينة "كْفار سابا"، متنقلا بين ثلاث حافلات، تصل الأخيرة منها قبل السابعة بقليل..

واليوم ثمة أجساد خمسة بحاجة إلى من يزودها بالمأكل والمشرب والملبس على الدوام وخصوصًا مع بداية فصل الصيف.. ونفقات الناس جميعًا في هذا الفصل تتضاعف مع تضاعف عدد مناسبات الأعراس وما رافقها من عادات وتقاليد حتى تطال الغني والفقير بلا استثناء.. ومنذ أن تسلم رسالة الفصل من عمله واظب على شراء الصحف العبرية المشهورة من حانوت "عبد الله الفاطمة" القريب من حيه الذي يسكن فيه، وقراءة الجزء المتعلق بطلبات العمل.. وكان "آرييهْ" صاحب مصنع الورق قد تخلى عن خدماته متذرعًا بكثرة الإنتاج وقلة الطلب. ومن أجل التقليص في النفقات عليه أن يسرّح بعضًا من عماله العشرين، فوقع اختياره على "أشرف".

الرسالة التي تسلمها بيده، شعر بأن لها رائحة تنم عن أن "آرييه" لم يهُن عليه التخلي عن عامل من أبناء جلدته، وأن التخلي عن عامل عربي هو أهون السبل لديه.. فسلّم عليه سلمه رسالة التسريح شاكرًا له خدمته المتفانية وإخلاصه في عمله من أجل مصلحة المصنع الذي يُطعمه ويُطعم أبناءه..

راح يتصفح الجرائد، مدققًا النظر، ويسجل على دفتر خاص أرقام هواتف المصانع ذات الشروط المتوفرة فيه ليسارع في الاتصال عارضًا نفسه وخدماته التي تكاد تخلو من أي خبرة سوى خبرة واحدة، وهي القدرة على تشغيل آلة تقطيع الورق وتغليفه. وكان كلما اتصل من هاتفه الخلوي وتحدث مع مدير مصنعٍ ما، وكشف عن هويته ومكان سكناه، أخبره أن رب العمل يحتاج إلى عامل يحمل بطاقة الإنهاء للخدمة العسكرية الإلزامية.. أو أنه اتفق مع عامل آخر كان قد حادثه قبله بساعة أو ساعتين.. أو أن المصنع لم يعد بحاجة إلى عمال وعدل صاحبه عن قراره لاستيعاب عامل جديد.. ومنهم من

قالها بكل صراحة ووضوح أن العمل لا يناسب عمالا عربا.. أحس "أشرف" أن الدنيا قد أغْلَقَتْ في وجهه أبوابَها وشعر بالحرج أمام كل من سأله من معارفه عما إذا وجد عملا جديدًا أم ما زال عاطلا عن العمل..

إن البحث بالمهاتفة لم يؤدِ إلى نتيجة إلا بعد ثلاثة أشهر، حين طلب منه أحدهم، وهو صاحب مصنع للحلويات والمعجنات، الحضور صباح يوم الاثنين في تمام الساعة التاسعة، من أجل المقابلة وكشف الهيئة.. ارتدى أجمل ما عنده من الثياب ثم سافر بالحافلة المتجهة من مدينة "بيتح تكفا" - والتي لا يزال العرب يطلقون عليها اسم "إملبِّس"- إلى مدينة تل أبيب..

هذه سكرتيرة جميلة تجلس في مكتب مبرّد، استقبلته ببرود شديد،لم يعرف أنها زوجة صاحب العمل إلا بعد أيام، وما وضعته من مساحيق وألوان على وجهها الناعم قد زاده بهاءً وجمالاً. كانت رائحة عطرها الفواح تملأ أجواء الغرفة. تلبس قميصًا شفافًا، شَقَّ صانعه أعلاه على هيئة مثلثٍ منفرج الزاوية كُلِّلَتْ أطرافه بورود بنفسجية صغيرة، حتى بدا من صدرها ثلثا ثدييها الطريين وكأنهما وسط حديقة ناضرة.. ولم يكن الآن في مقدوره أمام هذا المنظر غض البصر الذي تعوّد عليه منذ أيام دراسته حين كان ينصحه والده المتدين بذلك خوفًا من الوقوع في الحرام.. وحفظا للفرج .. ولم ينس تلك الكلمات التي سمعها منه وقد رددها عليه مئات المرات: "العين، يا بني، تزني .. والأذن، تزني. وإن الفرج ليزني .. والزاني يُزنى به ولو بجدار بيته..."
ملأ الاستمارة التي ناولته إياها وسجل تفاصيله الشخصية بدقة وجلس ينتظر مجيء صاحب المصنع.

لم تمض سوى عشر دقائق حتى ظهر رجل بملابس العمل، طويل القامة أبيض البشرة يبدو من وجهه أنه من أصل أوروبي.. خفيف الروح، بشوش الوجه وحاضر النكتة.صافحه وعرّفه بنفسه، وطلب منه أن يمارس عمله حالا، لكنه اعتذر لعدم استعداده لذلك واتفقا على بدء العمل من صباح اليوم التالي.

لم لايصغي "أشرف" إلى شرح "خيزي" في انتباه شديد حتى يتعرف على أصول الشغل وطبيعته في أسرع وقت ممكن.. ولم لا ينفذ التعليمات ما دام هذا العمل مصدر رزقه الوحيد. وهو لم يرث من أبيه أرضًا ولا مالا..

كان من بين عمال المصنع أربعةٌ رجال، كبار السن قصيري القامة ينحدرون من أصول يمنية، يعملون في المصنع منذ تأسيسه.. وكانوا كلما حانت الساعة العاشرة وهي ساعة الاستراحة جلسوا وتناولوا مساحيقهم الحارّة ومضغوا أوراق الشجر الذي يُعرف عندهم باسم شجر (القات) وتحدثوا في مواضيع سياسية آنية شتى.. وانضمامه إليهم فتح لهم باب الحديث على مصراعيه فناقشوه في أمور الدين والسياسة واندفعوا يتهمون العرب بالضعف والجبن والإرهاب وأنهم دائما هم المعتدون.. وبالرغم من أنهم لا يخدمون في الجيش ويحصلون رواتب شهرية من التأمين الوطني بدءًا بمخصصات الأولاد

وانتهاءً بمخصصات البطالة، إلا أنهم يكنّون في نفوسهم عداءً للدولة ولا يخلصون لها تمام الإخلاص..

لم يقف "أشرف" مكتوف اليدين، إذ قطب حاجبيه وانبرى يدافع عن العرب قائلا:

-" صحيح أننا نحن في هذه الدولة نحصل على رواتب قليلة من التأمين الوطني ولكنها حق وليست مِنَّةٌ من أحد. إذ نحن دائمًا نشعر بأننا موطنون من الدرجة الثانية.. ونعاني من التمييز منذ زمن طويل في جميع المجالات.. لأن الدولة تأخذ منا الكثير ولا تعطينا إلا القليل.. تجبي منا الضرائب الباهظة وتحرمنا من الميزانيات اللازمة لبناء البنى التحتية في قرانا ومدننا.. فأين هي المستشفيات والجامعات؟ وأين هي الحدائق العامة والمناطق الصناعية؟ بل وإلى متى سيستمر هذا الإجحاف بحقنا؟؟

إذا كانت خطورة الموقف هذه ستؤول إلى زيادة التوتر وحدة النقاش فما الذي يمنع "خيزي" من التدخل وفك النزاع واحتواء الأمر قبل أن يتفاقم.. ثم كان تدخله الصارم. وطلب من كلا الطرفين الامتناع قطعيًا من الخوض في الأمور السياسية في مكان العمل.

لم يكن "خيزي" ليتوقع قدرة "أشرف" على إتقان العمل بهذه السرعة واكتسابه فن مهارة العمل، الأمر الذي أدى إلى زيادة الإنتاج وازداد معه الربح.. كان "خيزي" يراقبه عن كثب ويرقب كل أعماله ومدى صدقه في تنفيذ التعليمات.. فدعاه إلى مكتبه وقال له بحرارة:

-"أريد أن أعينك مسؤولا عن الوردية الثانية التي ستبدأ مع مطلع الشهر القادم.. وأرجو أن تكون عند حسن ظني.. وعليك أن تحافظ على المصنع كأنه لك.. وتشرف على العمال أثناء عملهم.. وسأضاعف لك راتبك".

...مسؤولا؟

... وعن وردية ثانية؟

... ومضاعفة الراتب؟؟

فليكن. هذا شيء عظيم. لم أكن لأحلم به من قبل.. أي حظ هذا!! لا تخف يا "خيزي" وسأكون عند حسن ظنك.

ليلة كاملة لم يذق فيها طعم النوم.. قضاها متقلبًا في فراشه سارحًا في أجواء ماضيه وهو يفكر بالمنصب الجديد الذي لم يكن يحلم به في حياته.. فتذكر "أرييه" ومصنعه وكيف أنه قلّص من وظيفته قبل أن يتخلص منه.. وجال في خاطره إصرار والده على خروجه إلى ميدان العمل ورفضه لفكرة التعلم في الجامعة أو في الكلية رغم حصوله على معدل عالٍ في امتحانات الثانوية العامة.. وظل من يومها عاملا كادحا كأنه آلة حديدية تشتغل كل يوم منذ الصباح إلى المساء، ولم يتقدم في حياته قيد أنملة.. وكيف خاض معركة شرسة مع والده حين أراد الزواج من زوجته الحالية فعارضه في ذلك لما مرّ بها من ظروف صعبة.. ونقلته الذاكرة على جناح السرعة إلى أولئك الأقزام الذين سخروا منه ومن العرب في اليوم الأول الذي بدأ فيه عمله.. ولا يزال يذكر جرأته وشجاعته حين تصدى لهم بإرادة وحزم.. وقال في

نفسه: ليعلم هؤلاء الأقزام أن الإنسان العربي ليس أقل شأنا منهم ولا أضعف فكرًا وإنتاجًا.

كان عدد عمال الوردية الثانية ثمانية.. منهم ثلاثة من العرب.. اثنان من أبناء عمه والآخر صديقهما. أرشد أحدهم ودلّه على طريقة تشغيل آلة قطع الشوكولاطة.. وطلب من الآخريْن تعبئة المنتج وترتيبه في صناديق ورقية وإلصاقها حالما تمتليء.

وليس من الحكمة أن يعاملهم معاملة خاصة، أو أن يجاملهم أو أن يتعامل معهم كما كان يتعامل من قبل.. الآن عليهم أن يطيعوه وأن يلبوا طلبه.. وإن رفضوا طُردوا من العمل.. ثم إنه ليس من المعقول أن يضحي براتب كبير من أجل صديق هنا أو قريب هناك.. ومن الممكن أن يحضر "خيزي" أو زوجته فجأة للمراقبة والاطلاع على أمور مصلحتهم في أي وقت يشاءون..

يكاد لا يُصدّق.. إذ كان في مكتبه وما كاد أن يخرج من بحر أفكاره ، وكانت الساعة قد اقتربت من التاسعة، حتى سمع صوت سيدته "لئورا" تقول له:

- مساء الخير يا "أشرف" .

نهض من فوره فزعا ووقف إجلالا لها وترحيبًا بقدومها ثم انتابته مشاعر القلق، وساورته شكوك شتى في مجيئها في هذه الساعة المتأخرة.. ولما تجولا في المصنع وتفقداه وعادا إلى المكتب، اقتربت منه ووضعت يمناها على خاصرته ولثمت خده بقبلة طويلة لم يعهد مثلها من قبل.. إذ لم ترفع شفتيها عنه حتى ضمها بين ذراعيه فتحولت القبلة إلى قبلات ثم خُلعت الملابس وانكشفت عوراتهما وبانت لهما سوءاتهما والتصق الجسد بالجسد وارتعشت ارتعاشةً بعثت في نفسها اللذة والاكتفاء والطمأنينة.. وقالت له والبشر يملأ محياها:

- إنك رجل حقيقي.. ونِعم الرجل أنت يا أشرف.

ثم لملمت بعضها ، وهمست في أذنه قائلة: سنلتقي في مثل هذه الساعة بعد أسبوع.. ثم خرجت من المكتب تخب خبًا.

طريق بلا رجعة

صراخ في صراخ.. هكذا أصبحت حياتهم.. ودعوات في دعوات، لو أُسْتُجيب لها لانهدّتْ منها الجبال وأصبحت ركامًا.. وألفاظ نابية تتبعها كلمات لا تخلو من الياء الواصفة.. واتهامات لا تعد ولا تحصى.. الأعصاب مشدودة

ومتوترة.. إهانات من خلف جدران البيت تُسمع، عاصفة قاصفة لا تهدأ إلا بعد أن يغادر "إبراهيم" البيت تفاديًا لوقوع مالا يمكن أن يتوقع. تاركًا زوجته "منى" وأولادها ينتحبون في غضب شديد. وقبل أن يخرج اعتاد أن يمطر العرب بقذائفه الثقيلة.. أنتم أيها العرب متخلفون.. لا تعرفون معنى للحياة.. حياتكم أكل وشرب ونوم.. النساء لا تعرف إلا الطبخ والنفخ.. لا أدري كيف تنام المرأة إلى جانب زوجها وقد نسيت في جيبها بصلة.. لن أجد طعمًا للعيش إلا إذا هجرتكم وسافرت إلى أوروبا...

إنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه الخصومات. ولم تكن الحياة لتتغير إلا بعد أن أُكتُشِف أمر الديون الكثيرة من غير أن يفصح عن الأسباب. أين الأموال التي كان يتلاعب بها؟ لا أحد يعرف. خرج... ولكن خروجه الآن من غير عودة.. وهذا التهديد في هذه المرة هو تهديد حقيقي رغم أنها لا تصدقه.. خرج ولم يعد. وقالت له: مع ألف "قلعة" ومن غير رجعة.كان "إبراهيم" يعمل في أحد مصانع البلاستيك في "تل أبيب". وطلب من صاحب العمل أن ينام في المصنع حتى تنفرج الأزمة، فلبى "شلومو" الطلب. لكنه لم يستطع النوم لا لأنه اعتاد أن يسهر كل يوم في قهوة "أبو الحسن" حتى الساعة الواحدة ليلا، ولا لأن الفراش قديم وتفوح منه رائحة نتنة، بل بسبب غرقه في التفكير الذي لم ينقطع حبله من كثرة تأويلاته في طرق البحث عن بيت يأويه.. ومع ذلك تذكر "إيتامار" البولندية الأصل والتي لم تتصل به منذ زمن طويل.. وتذكر دعوتها له أول مرة إلى بيتها حين تعرّف عليها في جولته على شاطيء "يافا" وطلبت منه شعلةً لتشعل سيجارتها.وحال وصوله إلى بيتها وجدها شبه عارية فرحبت به ترحيبًا لم يسمع مثله من زوجته ولو مرة واحدة. وأخذت تغازله بعد أن "بَشَّرَتْهُ" بسفر زوجها إلى خارج البلاد وسوف يمتد غيابه إلى عشرة أيام، فاطمأن قلبه. ولا يزال يذكر الرجفة الكهربائية التي أحس بها ساعة لامس جسده جسدها الناعم الذي تحسسه وشعرها بأصابعه في صمت النشوة، وعطرها الفواح الذي نشر في نفسه دوافع الغريزة الجامحة. ثم قضى ما قضى وغط إلى جانبها في نوم عميق.

ثم تذكر صديقته "كارميلا" حاملة الجنسية الإيطالية والتي أنفق عليها الكثير من أمواله تقول له:

-ما لنا وهذه البلاد .. تعال نهاجر إلى إيطاليا ونعيش فيها عيش السعداء.. ونربح المال الكثير..

وكان النهار المغمض بغيومه العالية التي تحجب وجه الشمس قد أوشك على الرحيل. والغموض يكتنف طريق الرجل. المبلغ التي طلبه من "شلومو" كانت كبيرًا فأُعطي نصفه فقط شرط أن يخصم من راتبه الشهري.. وغادر إلى مكانه الأثير في شارع "هرتسل".. حيث خمارة أفينوفيتش. بأعصابه المتوترة التي تثقل كاهله كوطأة جبل الشيخ على السهول الشمالية ، تناول سماعة الهاتف الذي يعمل بالعملة النقدية ثم غمغم قائلا:

- " كارميلا" كيف حالك.. لقد حصلت على مبلغ يعادل الألف دولار.. بإمكانك أن تحجزي تذكرتين للطائرة إلى روما في اتجاه واحد.. سفر من غير رجعة.. وليكن سفرنا طويلا..

الوداع الصامت

خمسون عامًا مضت على الفُراق.
ولا تزال الأطلال متطاولةً وتطل صامتة على بيوت المدينة من خلف السوق دون أن تندثر. وتتوارى خلفها بيوت قديمة مرّ على بنائها مئات كثيرة من السنين.
نصف قرنٍ مضى على ذلك الرحيل.
ولا تزال صوَرُ أحداث المدينة الدرامية تتشبث بجذورها في أرض الذاكرة كأنها حدثت بالأمس القريب..
رحل الأهل وتفرّقت الأنفس وتشتَّتَ الأحباء..
وتفرّق الناس إلى ما وراء الجبال والآفاق البعيدة..
أطلال صامتة رثاها التاريخ وبكت عليها الطيور ونعقت فيها الغربان ونبت فيها الحنظل..
لكن ظلّ الرجلُ يتوق لرؤيتها قبل أن تخطفه المنية التي لا يفلتُ منها طير أو بشر.. وما بقي من العمر مثل الذي ضاع منه..
كان في العشرين من عمره عندما أذن مؤذنٌ: "أيتها العير إنكم لراحلون".. فوجد نفسه وأسرته في واد غير ذي زرع.. بلا فراش يفترشونه أو غطاء يَقيهم من برد الصحراء.. فافترشوا الأرض والتحفوا السماء. فمنَّ "الشرفاء" عليهم بخيمة وبطانيات وقليل من الطعام وجرعات من الماء. وعجلات الزمان ظلت تدور من غير توقف أو انتظار لأحد.. وبقيت صامتةً تدوس السنين من بعد السنين.. كانت تلقي به ذات اليمين تارة وذات الشمال تارة أخرى كأنه ورقة زيتون تطير من مكانها قبل أن تُداس.. و"عبد الله" بقي واقفاً متحديًا لها بعزيمة قوية وإيمان راسخ لا يأبه بما يُعرض عليه من قروش هنا أو دريهمات هناك.. وظل يجمع أحفاده ويروي لهم قصة مدينة ساحرة، سحرت عيون الناس فجاءوا إليها من كل حدب وصوب. مدينة تفتحت معها أبواب الرزق وأسباب العيش.
آنَ الأوان ليراها.. إنها المرّة الأولى منذ خمسين عامًا.. بجواز سفر أمريكي؟ فليكن! وما الذي سيحدث؟ نعم سيصلها بجواز سفر أمريكي.. هذا كل ما يستطيع أن يفعله.. وعلى متن طائرة أمريكية أيضًا.. لكنه سوف يتنفس هواءها.. ويشم رائحة أديمها.. ويدوس شوارعها.كم طال انتظاره!
لكن سُمح له أخيرًا بزيارة سياحية مدتها أسبوعين فقط. وحصل على تأشيرة الدخول بعد انتظار دام ثلاثة أشهر. النية إلى "اللُّد" أولا ثم إلى القدس ثانيا..

تُرى في أي حال أنتِ يا "لِدُّ"؟؟
هل تشوّقتِ إلينا كمل تشوّقنا إليكِ؟؟
ليتك تعلمين كم نحن مشتاقون إليك مذ أُخرجنا من ديارنا خائفين؟
أي شيء حدث لكِ بعدنا؟
لا شيء يؤكّد لنا أن البيوت بقيت على ما كانت عليه.. لكن المؤكد أن الجامع الذي كان بجوار بيتنا وكنّا نصلّي فيه ما زال قائما حتى اليوم..
آهٍ يا "لدُّ" آه..

والطريق إلى "اللد" أيام السبت تكون سالكةً فلا يجد السائق إلا قليلا من السيارات وكثيرًا من الغربان التي تهبط لتتغذى على جِيَفٍ قططٍ أو كلابٍ أو طيورٍ تنتشر على الطرقات.. دهكتها السياراتُ بعجلاتها. وارتفعت الشمس بشعاعها قليلا وهي ترنو إلى كبد السماء.. كان "هاشم" يقود سيارته في سرعة غير اعتيادية.. سرعة عجيبة لم يشعر بها إلا بعد أن أحسّ أنه سيراهن على رخصته وتذكّر أن المفترق القادم الذي يُعرف أنه يتربع فيه شرطيٌّ يحمل رادارًا ويصطاد المخالفين واحدًا تلو الآخر.. وأن صديقه "محمود" قد سُحبت رخصته منذ مدة بسبب سرعته الزائدة.. فاضطرّ إلى تخفيف السرعة والانضباط في سيره..

الساعة تجاوزت قليلا العاشرة والنصف حين أوقف "هاشم" السيارة قرب سوقٍ كانت ولا زالت حيةً حتى اليوم.. "سوق الثلاثاء".. السوق التي كان يبيع فيها قبل خمسين عاما الملابس والجلود والتمور.. ويُباع فيها كل ما كانت تنتجه أيادي الفلاحين والمدنيين والصناع والمهنيين. وما أن ترجّل الرجلان حتى انحنى "عبد الله" فسجد سجدة طويلة ثم راح يقبّل الأرض ويمسح وجهه بالتراب أمام المارّة غير آبهٍ لنظراتهم المتعجبة.

لم يحوّل عينيه عن مئذنة المسجد إلا حين فتحت له الذاكرة نافذة على ذلك النزاع الذي شبّ بين التجار القرويين بجانب هذا المسجد وأسفر عن مقتل أحدهم.. ثم استرجع فيها تلك المظاهرة التي انطلقت من جانبه متجهة نحو السوق فتدخّل البوليس الإنجليزي واعتُقِل حينها خمسة متظاهرين ظل الجنود يعذبونهم حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة. ولا تزال تداعيات هذا الحادث المؤثر تتفاعل في نفسه كلما شاهد مظاهرة أو رجال شرطة يحملون العصي والهراوات.. وتذكّر فتاة حبه الأول "زينة" ابنة الحاج "معروف". ولا يزال يذكر شروط والدها التعجيزية حين تقدم بطلب يدها والتي حالت دون زواجهما.. وكم مرة التقى بها في مواسم قطف الزيتون قرب كرم "أحمد المأموني" وقدم لها الهدايا جميلة!!.. أيام جميلة قضاها في صباه وأول شبابه.. ولا يزال يتحسر عليها منذ ذلك الحين. ولفتت انتباهه تلك البناية السكنية الضخمة الموازية للسوق من جهة الشرق، وأقيمت في مكان بيت "محمود الخلال" وبيوت جيرانه وبعض المحلات التجارية.. قلبه احترق ألَمًا لما شاهد عصّارة الزيتون قد تحول جزءٌ منها إلى ركام وتحوّل الجزء الآخر إلى وكر للمدمنين على المخدرات فترقرقت عيناه وانزلقت من عينيه دمعتان ساخنتان

لامستا خدّه المتجعد. خمسة عقود مضت لم يرَ فيها بيته إلا في أحلام اليقظة..

لم يصدق عينيه حين شاهده وشاهد أسواره دون أن تتغير بدوّامة التغيير. ولم تغيّر الطبيعة فيه لونٌ أو حجرٌ وبقي ثابتا دون أن يتحرك من مكانه الذي أقيم فيه.. نعم إنه هو.. هو.. هو نفسه يا "هاشم"..!!

والدخول إلى المنزل هو نفسه مغامرة.. وقد لا يكون الدخول إليه مثل الخروج منه، لأن أصحابه قد تبدّلوا بعد أن تبدّد أصحابه الحقيقيون في الدنيا الواسعة. لماذا هذا الدخول يا حاج "عبد الله" ألا تكفيك رؤيته من الخارج؟

أصرّ "عبد الله" على الدخول رغم تخوفات رفيقه السائق المشحونة بالقلق، ومحاولات ثنيه المتكررة حتى لا يدخل مع نزلائه في جدل لا فائدة منه. أو ربما قد ينفعل الحاج ويتلفظ بكلمات لا جدوى منها.. ومن الممكن أن يتصل أحدهم بالشرطة فيورّطهما بورطة لا مناص منها. إصرار شديد وتصميم أشدّ..

ثلاث دقّات متتالية.. أتبعها بثلاث أخرى. فُتِحَ الباب وسُئل الغريبان عن مرادهما.. ثم سُمح لهما بالدخول.. لا لأن المرأة البدينة ابنة الأربعين ذات الشعر المصبوغ باللون الأصفر أشفقت عليه بعض الإشفاق.. ولا لأنها كريمة أرادت أن تجاهر بكرمها أمام هذا العربي القادم من أمريكا.. بل لأن نفسها اشتاقت لسماع الحكاية بتفاصيلها. وهي شغوفة جداً بسماع الحكايات.. والحكاية لن تبقى إلا مجرد حكاية.

برجله اليمنى دخل في صحن داره وبسمل بصوت مسموع كما اعتاد أن يفعل ثم نظر يمينًا ويسارًا وراح يتفقد بقلبٍ خافقٍ وعينين فاحصتين باكيتين ما طرأ من تغيير على هذه الدار. وأخذت المرأة تفتح له الأبواب.. الباب تلو الباب.. وتنقله من غرفة إلى غرفة إلى أن اقترب من الغرفة التي وُلِد فيها وإخوته الثمانية فوقف صامتًا متسمّرًا وتذكّر وهو يمدُّ بصره في داخلها بابَها الخشبي الذي أُغلق ساعة ولادة أخيه الأصغر وتذكّر أنه أحضر الداية بعد ساعتين من البحث عنها في بيوت المدينة. ولما خرجت بشَّرتهم بولادة أخ له أطلقت عليه اسم "عبد الرحمن"..

ثم طال الجمود وطال معه الصمت والانتظار.. وكانت هي في حالة ترقب وحذر شديديْن.. إذ طلبت من مرافقه أن يترجم لها كل كلمة يقولها الشيخ بمعناها الحقيقي ومقصده بها.. وتوقعت أن تندفع من جوفه كلمات مؤثرة معبّرة تنطق بمشاعره الجياشة.. لكنه ظلّ صامتًا وكاد صمته أن ينطق بكلمات شبيهة بحديث الموتىوهمساتهم.. وتنامى الصمت بعد أن تغيّر وجه الشيخ. ثم أغمض عينيه. وارتخت أطرافه. وانهار على الأرض. وسكتت نبضات قلبه.. وراح في إغفاءةٍ أغرقته في صمت أبديٍّ طويل.

العفريت الأزرق

عند اختفاء الدولارات -الستة آلاف-من جيب المعطف المعلّق في خزانة الملابس، كان أفراد الأسرة جميعهم خارج البيت. كانوا يشاركون الأستاذ "مجدي الحزماوي" في فرحه بزفاف ابنه البكر "رشاد".. ولكن الشيء المثير للعجب والدهشة أن البيت لم تظهر فيه ثمة علامات اختراق ولم يُترك فيه أثر اقتحام. كان في حالة عادية مائة بالمائة، إذ لم يتغير فيه شيء على الإطلاق ولم يتحرك غَرَضٌ من مكانه أبدًا.. فكل شيء بقي موجودًا في مكانه كما هو.. والباب الداخلي وباب البيت الخارجي مقفلان.. والنوافذ موصدة كما كانت.. أسئلة وتساؤلات عديدة حيّرت أهل البيت ولم يستطع أحد الإجابة عنها. ووجمت أسرة الأستاذ "مروان" وجومًا طويلا مختلطًا بالحزن والغضب.

وما العمل إذن؟؟ استدعاء الشرطة؟ لا.. لا.. لأن الشرطة لا تولي اهتمامًا كبيرًا بمثل هذه الأمور.. البحث عن الجناة خارج البيت في هذا العصر كالبحث عن سمكةٍ في بحرٍ واسعٍ ممتلئ بأعداد هائلة من الأسماك المتشابهة.. لا يمكن إيجادهم بيسر.. لقد ذابوا كما يذوب الملح مع مياه النهر الجارف. واقترحت عليه زوجته "كاملة" بأن يجرب فيعرض القضية على الفتاحة "زريفة المرجانية" النابلسية التي يُعرف عنها أنها فتحت لكثير من الناس واستطاعت حلّ مشاكلهم بسهولة. وتستطيع كشف الحقيقة في أسرع وقت.

على بُعد مترين فقط منها، جلس الأستاذ "مروان" على حصيرةٍ باليةٍ سقط بعض من قش أطرافها المنفرطة، وناولها ورقتين نقديتين من فئة الخمسين دينار ثم وضعتها في عجلةٍ في كيس صغيرٍ أخرجته من صدر ثوبها، وأخذت تردد كلمات وجمل غامضةً تبين له من سياقها ومن خلال إيماءاتها، أنها تتحدث مع شخص ثالثٍ يتواجد في الغرفة دون أن يراه كانت قد استحضرته بطلاسم حفظتها عن ظهر قلب.. ولا بد أن يكون هذا جني أو عفريت. وكان ظلام الغرفة قد شقّته خيوطٌ رفيعةٌ تسللت من شقوق النافذة ومن بين مصراعي الباب المغلقين، حتى ليكاد المرء لا يرى في الوجود إلا شبحين، هما ذكر وأنثى، جالسين في "خلوة" وسط تلك الغرفة. فيما المكان عكّر صفو هدوئه صوت زقزقات العصافير..

ومع كل هذا لم يكن "الشيطانُ ثالثهما"، ولم يوسوس لهما وساويسه التي تهيج الغرائز التي زرعت ونبتت في الذات البشرية.. بل ولم يخطر على باله شيءٌ من هذا القبيل، لأن المرأة عجوز باردة انطفأت حرارتها منذ سنين طويلة ثم، لا تبحث العجائز في مثل هذا السن إلا عن مالٍ ورزقٍ للعيال. وبرودة المكان أخذت تنخر في عظامه بحيث ما أن لبسه الشعور بالرهبة الحقيقية في هذا اليوم حتى ألهمه التفكير في نفسه باليوم الآخِر. لم يكن الحرّ ليسمح للهواء الراكد في الغرفة بالتحرك في هذه الدقيقة بالذات.. وهو لا يشعر حتى بذرّة هواء تلامس جسمه.. إذن وما الذي جعل الستائر تُنفض كأن أحدًا يخبطها بعصا غليظة ليجلو عنها الغبار؟ ثم لماذا تتحرك الأوراق من

على الطاولة ثم تتمزق فجأة ثم يرتطم ثم يُسمع لحظتئذٍ صوت ارتطام صحون بالأرض وخرخشة صرة مفاتيح مع أن الغرفة خالية من الصحون والمفاتيح؟

كانت عيناه تلمعان وتتحركان نحو مصادر انبعاث الأصوات المفاجئة.. ولولا تلك الجرأة التي اكتسبها من أبيه والدالة وحدها على إرادته للحياة لوجدته فعلها في سرواله أوقد شمّر وولى هاربًا من غير أن يفكر في رجعة إلى مكان تسكنه الجن والشياطين.. ثم تحدَّدَ صوت العجوز الشمطاء وارتفع مع رجفة في أطرافها ثم صرخت قائلة بصوت آدميٍ رجولي غليظ:

- قل لي مين اللي أخذ المصاري؟..... مين؟ ..... واحد من قريب من الحارة؟..... شو اسمه؟ ....."ياسر"؟؟..... أنت شفته لما طال المصاري؟..... في أي وقت؟ .....قبل أسبوع؟..... بتقدر توصفه ْ؟...

أخذت الريبة تلعب في صدره.. وشعور غريب اعتراه حين نزل من سيارته واتجه ببصره إلى فناء بيت جاره "ياسر" فوجده يسقي شجرات بيته.. ولولا تجلده لاندفع نحوه "يغطغطه" بسكين حاد في صدره شفاءً لغليله.. ولو جدَّ في تهوره وركب رأسه، لما كنت تجده يصعد نصف درجات داره ثم يتوقف برهةً ويقول في نفسه:

أيمكن أن يكون "ياسر" لصًا من لصوص البيوت ونحن لا ندري.. لا.. لا.. لا أصدق هذا الكلام..

صحيح أنه لا يصلي إلا أيام الجمع فقط، ولكن أعرف أنه إنسان شريف ومستقيم وراشد .. ثم إنه ليس محتاجًا إلى مال.. ولكن كيف أشارت الفتاحة إليه ووصفته وصفًا دقيقًا دون أن تعرفه.. والله هذا شيء محيّر!!!

لسان الزوجة لم ينقطع عن كشف ما كشفته "زريفة المرجانية" وعن تصديقها لكلامها.. والخبر إذا شاع لا بد أن ينتهي في نهاية المطاف إلى "المتهم". وما أجوع النساء لمثل هذه الأخبار!

وقبل أن يفتح "مروان" عينيه في ذات صباح إذا به يسمع رنين الجرس "يصنُّ" في أذنيه بتواصل.. نظر فوجد "ياسرًا" يرافقه الشيخ "شداد" حاملا في يده اليمنى مصحفًا وهو يحوقل ويدعو للجميع بالخير.. ولما فُتح لهما الباب رفض "ياسر" التفضل وأصرّ بغضبٍ شديدٍ على أن يقسم بالله ويمناه تلامس المصحف الشريف أنْ لا علاقة له في قضية سرقة الدولارات من البيت.. أما الشيخ "شداد" فقد نصحه أن يتقي الله وأن لا يتهم أحدًا زورًا وبهتانًا، من غير دليل ولا برهان، وأن لا يزور عرافًا أو مشعوذًا لأن الزيارة تعتبر شركًا بالله.. وإذا كانت لم تظهر آثار للجريمة فهذا دليل على أن الجاني جنيٌّ مسخّرٌ.. وبما أن الجني لا يستطيع أن ينفذ إلى صفحات القرآن الطاهرة فبإمكانه أن يخبيء أمواله داخل المصحف كما يفعل هو..

بعد شهرين كاد الرجل أن ينسى الحادثة الأليمة.. إلا أن الصدمة التي أثرها بقي يهيمن على بقعة صغيرة في الذاكرة علمته أن يأخذ بنصيحة الآخرين وأن يلجأ إلى القرآن الكريم.. ألف دولار استلمها وقرأ عليها أمام زوجته آية الكرسي والمعوذتين وعطرها ببخور اشترته زوجته من سوق القدس ثم وضعها في صفحات سورة "يس" ، ثم وضع المصحف في خزانة

الملابس.. وكان كلما مرَّ يوم أو يومان يمضي إلى المصحف فيفتحه ليتأكد من وجود المال في مكانه..

اضطرب الرجل بانفعال مفاجيء، ذات ليلةٍ، حين سمع وقع أقدام في البيت، حبس نفسه فوجد أن باب الغرفة يُفتح شيئًا فشيئًا.. كان قد بدأ يدرك أن البيت مسكون بأشباح وعفاريت، خصوصًا بعد أن شعر قبلها أن هناك شخص ما يسير وراءه ويقلده في كل خطواته حتى إذا اقترب منه أخذ يدغدغه بخفة شديدة. وإذا ما توقف، توقف مثله.. وحينما بسمل وقرأ القرآن شعر بابتعاده عن المكان في سرعة عجيبة.. ولما رأى زوجته وأبناءه يغطون في نومهم بسلام، قرأ المعوذتين وآية الكرسي وقليلا من القرآن الكريم ، ثم أحسَّ أن البيت قد تُحُصِّن وقد خلا من الجن والشياطين التي تخيلها تفرُّ من المنطقة في فزع شديد.

امتص الرجل غضبه الذي كاد يعصره حين تفقد المصحف بعد عودة العائلة من رحلة استجمام إلى طبريا عصر يوم السبت، فوجد أن "الألف دولار" قد اختفت منه. واحمرت وجنتي زوجته التي ارتجفت فتولتها ثورة غريبة ونزلت من بيتها في عجلة ثم تبعها زوجها وأولادها الثلاثة وأخذت تنظر بعينين هائمتين نحو فناء المنزل متأملةً أن ترى أثرًا ما يكون قد تركه الجاني خلفه. ولما لم تجد شيئًا اتخذت لنفسها مجلسًا تحت شجرة التوت وأسندت خدها الأيمن على كفها وانخرطت تغط في تفكير مسترسلٍ سارحةً بنفسها سرحانًا طويلا من غير أن تأبه لكلام زوجها الذي ألصق التهمة مرة أخرى للعفاريت.. ولم تصحُ من تفكيرها إلا بعد أن جلس ابنها الصغير "فادي" في حضنها ، إذ رفعت رأسها واعتدلت في جلستها ثم غمغمت في صوتٍ حادٍ:

-أنا ما بصدق هذي ا لخرافات .. لا في هناك جن ولا شياطين..إللي سرق بيتنا هو إنسان .. بني آدم مثلنا.. ولازم نعرف مين اللي عمل هذا العمل..

- لكن كيف دخل الدار وعرف وين المصاري موجودة؟

- لازم نفحص الدار ونفتشها.. والحرامي بترك خلفهْ أثر ولو بسيط.

الجميع تسللوا إلى البيت وفتشوه جيدًا.. ودهشتهم كانت عظيمةً حين لم يعثروا على شيء . فاستدعى محققًا خاصًا من تل أبيب تعرف عليه منذ مدة، وكان قد طلب منه قبل هذا أن يحقق في الأمر إلا أنهما اختلفا على الثمن.. ولكن الصدمة في هذه المرة دفعته إلى الاتصال به من دون مساومة ..

تفقد "يوسي" البيت وتفحّصه جيدًا وأوصى بأن يبقى كل شيء على حاله.. وقال إن الأمل ما زال قائمًا للقبض على صاحب الجريمة.. طال الزمان أم قصر.. وبناءً على ذلك لا بد من إخفاء كاميرات صغيرة في البيت يتم التحكم بها بواسطة مكبس خاص يثبت في صندوق الكهرباء.. والسعر هو ألف دولار.. مش مهم.. لأن الأهم أن تزول الغمامة.. وأن يُقبض على العفريت.. وإذ ذاك شاع خبر في مقهى "الاستقلال" أن بيت الأستاذ "مروان" أصبح مأوىً للجن

والشياطين. ولأنه تزوج من إحدى الجنيات الغانيات وأنجب منها طفلا، فقد دبت الغيرة في نفوس جنيات أخريات، وشرعن في مطاردته حتى يقبل بالزواج منهن أيضًا. ولما رفض طلبهن لجأن إلى معاقبته، عن طريق سرقة أمواله وترويع أهل بيته.. وفي غضون أيام نُسجت قصص كثيرة ألبستها ألسن الناس حلل بديعة حاكتها من خيوط خيالها .. فهرع الشيوخ إلى بيته لتعزيته وقراءة آيات الرقية.. الآيات الطاردة للجان..

وفي ذات عودةٍ من زيارةِ الأهل مساء الجمعة، وبعد أن دخل الرجل بيته كعادته، ورأى آثار أقدام مطبوعة ببقع من وحل الشارع على مصطبة البيت.. إذ لفه هاجس الخوف من "الجنيات" التي تحدث عنها البعض، وتراءى له أن العفاريت تحاصر بيته من جهاته الأربعة تحمل كل واحدة بيدها اليمنى سيفًا وفي الأخرى مشعلا ناريًا تريد أن تشعل به البيت لتحوله إلى رماد.. ولم يستطع أن ينتزعه عن نفسه ويلقي به في فضاء البلدة إلا بعد أن أدرك أن البيت اقتحم وكشف الشريط عن امرأة تلبس ثوبًا أزرق اقتربت من عتبة الباب الخارجي وفتحته بهدوءٍ ثم دخلت البيت وفتحت الباب الثاني وفي نفسها ثقة وطمأنينة أن أحدًا لا يراها ولا يعلم أحد بوجودها. واعترفت "فهيمة" بعد التحقيق معها أن زوجها نسخ مفاتيح هذا البيت قبل عشرة أعوام بعد أن أودعتها جارتها عندها وطلبت منها الاهتمام بالطفل ريثما تعود من زيارتها للطبيب.. ثم اعترفت أنها تسللت إلى البيت بتشجيعٍ من زوجها مراتٍ كثيرة وفتشته دون أن تعثر فيه على شيء.

(نشرت في جريدة الاتحاد الصادرة في حيفا يوم الاثنين الموافق 2006/7/10)

بيت الدوّار

توجه بعضهم إلى بيته مساء يوم الجمعة، وكان لديهم ثمة رجاءٌ في وساطتهم .. وهم يأملون أن تنجح في التخفيف من أعباء الديون على "إبراهيم الدوّار".. هذا الذي يعمل في مصنع للحلويات في "رمات جان"، وأملوا أن تقلل زيارتهم هذه من الفائدة المتراكمة عليه، وتنقذ الأسرة من

التهجير والبيت من الضياع سيما الزوجة والأولاد. ولمّا لم يجدوه في منزله، اتصلتْ به زوجته التي خرجت لتوها إليهم وهي تمسك بيد ولدها الصغير الحافي، هاتفيًّا، وطلبت منه مغادرة الحفلة والحضور إلى بيته ضروريًا. فحضر مع أحد رجاله المسخّرين بسيارة الجيب الفخمة اللامعة، ذات الدواليب الضخمة، والمقاعد المغلفة بالنايلون الذي وضعته الشركة ولمّا يتم إزالته بعد.. إذْ ذاك أرادوا أن يجربوا، فليجربوا! ولم يكن ثمة مانع من العدول عن التجربة.. لربما قد تنجح جهودهم وتأتي بنتائج مرضية. وما داموا لا يخسرون شيئًا فليحاولوا. وليس في الأمر أي عيب. وهم رجال إصلاح. والمحاولات إنْ لم تنفعْ فإنها قد لا تضرُّ أبدًا. ولكل مشكلة يوجد حل، ولو كان مؤقتًا. سرعان ما كُسفتِ الأضواء في وجوههم وانكسفوا وليست النتائج كما كانوا يظنون. وإصرار "أبي القمر" على رأيه هو الذي كسفهم وأبى ثم أبى وبالحرف الواحد إلا أن يحصل على الفائدة التي حددها الاتفاق كاملةً عدًّا ونقدًا وفي خلال شهرٍ من الآن. قالوا له إن الربا حرام يا رجل! فأظهر لهم عدم اهتمامه لا بالحرام ولا بالحلال. وأسمعهم كلمات لاسعةٍ لسعًا خفيفًا لا ضوضاء له ولا ضجيج. وما يهمه الآن هو أن يأخذ حقه كاملا دون أن ينقص منه فلس.. هذا شغل! والشغل مش عيب ولا حرام. والحرام هو الاعتداء على حقوق الغير. وهذا الأمر مرفوض. وليش أسيادنا الشيوخ حراس الدين فاتحين حسابات توفير في البنوك وبيوخذوا فائدة؟

كانت هيئته في يوم من الأيام توحي للخلق أنه من أبناء الفقر المتحذلقين .. وتهامسوا: "إن الفقير إذا تحذلق أثار في النفس ضغينةً، وحرك في القلب حقدًا، وأنبت في أرضه مشاعر الكراهية، وأصبح مارقًا..". وليس بالضرورة أن يتزوج الفقر أمه ليصنع منها ولدًا فقيرًا ممارسًا. وليس بالضرورة أن يعيش حياة الفقراء ويتمرغ فيها طمعًا في دنياهم. وهؤلاء صناع القرار "المتمنطقون" وخصوصًا إذا ذاقوا طعم الفقر بأطراف أصابعهم ولعقوه بألسنتهم انتقموا من الناس جميعًا. وصبوا جام نقمتهم في آذان الفقراء وفي فوهات قلوبهم. وانشغلوا في إرضاء أرباب الجيوب المنتفخة. أما مشيته.. ملابسه.. شعره.. وكله كان طيشًا في طيش.. ولكن فلسفته كانت أكثر طيشًا. وقال عنه الناس إنه من "سخام القدر وشحارير الزمان وسناج فقر ومن ظَهْر خادم". ودائمًا يقول بثقةٍ تامّةٍ يقظةٍ :" إذا أُعطيتُ الإمكانيات اللازمة فلسوف أقوم ببناء المراكز العلمية ومن ثم أطير إلى القمر بسهولة. ولذلك أخذوا ينادونه "أبو القمر".

كثيرًا ما أثار في نفوسهم الغضب والحسد حين تفاخر أمامهم بنسبة ذكائه العالية التي حددها العالم النفساني حين حضر إلى المدرسة وفحص بعضًا من طلابها بناء على طلب خاص من قسم التربية والتعليم في المجلس المحلي.. قال له أحد المعلمين عشية توزيع الشهادات على الطلاب في المدرسة:

" أنت مستقبلك باهرٌ، وبإمكانك أن تصبح معلمًا"

" معلم! لا قدّر الله.. كاد المعلم أن يكون قتيلا!.."

لم يكن ليهتم بطعامه قدر اهتمامه بقراءة الكتب والجرائد.. ولا بملابسه قدر اهتمامه بمذكراته.. ولا بالفوضى السائدة في غرفته قدر اهتمامه بتطور مجتمعه.. الملاحظات التي كان يبديها للناس لم يلقوا لها بالا، وأحيانًا كانت تجلب له بعض المشاكل أو يتلقى الانتقادات اللاذعة..كان يؤمن أن الأفكار والمشاعر البشرية لا تنتقل بالوراثة. إنما تتأثر بتأثير البيئة وظروفها. وأن الله قد خلق الدماغ من أجل تشغيله لا من أجل تخزينه وتعطيله. والدماغ فيه خلايا تسمى الخلايا الإبداعية إذا اشتغلت كما يجب وفي الوقت المناسب، ولّدت إبداعًا وأظهرت إنتاجًا. فعلى الإنسان أن يقرأ ويعي ما يقرأ. وأن الإنسان المنتج ينال رضى الآخرين في الدنيا ورضى الرب في الآخرة. ومهما كانت عقيدته يبقى إنسانًا يحس ويتألم ويفكر. ولو وضع الدين جانبًا واستخدم العقل أيما استخدام لوفقت البشرية وعاشت أسعد حياتها وأهنأ أيامها. ومات الفقر ميتته الأبدية الكبرى. واختفى وباء الجوع من الوجود، وسطع النور الإلهي على الأرض الطيبة...

والدين هو أحد السبل التي ابتكرت قديمًا من أجل إسعاد البشر، وإذا صار الدين عقبة في تحقيق السعادة وجب التخلّي عنه وأصبح من الواجب البحث عن وسيلة أخرى لتحقيق هذه الغاية الشريفة.

وقف مرةً أمام عمال من العرب يشتغلون في تنظيف القمامة، وجمع الأوساخ في حاويات كبيرة، في أحد الشوارع في تل أبيب، وعلى ما يبدو تدل ملامحهم على أنهم جاءوا من الضفة الغربية أو من قطاع غزة.. ملابسهم الرثة تزينت فرصِّعتْ بفسيفساء من بقع الأوساخ الكبيرة، أذقانهم التي لم تلمسها شفرات الحلاقة منذ أسبوع تقريبًا بدت كأنها مغروزة بإبر حادة.. إذا ما هبط عليها الذباب هبوطًا عفويًا أو اضطراريًا سرعان ما يندم ويفر مذعورًا من رائحة عرقهم الخانقة.. يطرن قبل أن يرفع أحدهم يده ليذبَّها عن وجهه.. وبدت أجسادهم، الهزيلةُ كل الهزل، كالعنزات المحبوسة التي لم يقدم لها الطعام منذ فترة طويلة.. تأملهم بعض الشيء ثم وقف فيهم خطيبًا واعظًا في صوت ينم عن تعاطفه مع مرارتهم التي يذوقون طعمها كل يوم: " يا للتعساء!! أين أنت يا هذا! مكان عملك يجب أن يكون في مكتب المحاماة تجلس على كرسي مبطن وترتدي الملابس السوداء وتدافع عن المنكوبين التعساء والمظلومين..وأنت يا هذا! عليك أن تكون مهندسًا تضع الخطط اللازمة لِلْبُنَى التحتية وتشرف على بناء العمارات الضخمة وتجهيزها لتكون مأوى للفقراء والمساكين. أما هذا فالطب هو المجال الوحيد الذي سينجح فيه وسيخفف من آلام هذا الشعب. صدقوني إنكم خير مما تظنون وتستطيعون أن تثبتوا هذا بتفكيركم واجتهادكم، تحرروا من الجهل ومن الخوف ولا تترددوا! تحرروا من عاداتكم وتقاليدكم!! ومن عبوديتكم للجهل والفقر! وكونوا من المتحررين!!".

وكان في شبابه قد أحب ابنة الدكتور "مظفر الشامي". كان يراقبها في غدوها إلى مدرستها ورواحها منها.. يتظاهر أنه منشغل في قراءة الجريدة

أثناء جلوسه في شرفة بيته. ينظر من وراء صحيفته بعينين متقدتين.. وقد رأى فيها كل الكمال الذي فاق كل الاعتبارات.. وهذا هو الذي كان ينشده والذي طالما تمناه وافتخر به أمام بعض زملائه.. جمال جذّاب.. قوة شخصية.. وذكاء.. ولم تستطع واحدة من "الواساطات" الثلاث اللاتي كلفها بمهمة خطبتها له إقناعها أو إقناع والديها بالموافقة على الزواج. وقالت لعمته ساعتها بصوت أنثويٍ ناعم، رقيقٍ منغم، مشبعٍ بأصوات من الدلال:
- " أنا.."سوسن" ابنة الدكتور "مظفر الشامي".. تريدون مني أن أتزوج من إنسان مثل هذا! فقير يتيم "كحتوت" لا يوجد فوقه ولا تحته أي شيء! ماذا ستقول عني زميلاتي! ماذا سيقول عني زملائي الطلاب عندما أدخل الجامعة؟ أنا لا أفكر في الزواج الآن. تعليمي أهم من كل شيء"..
انتقلت تلك العبارات بانفعالاتها من بيت إلى بيت مع قليل من الزيادة الطبيعية التي تصاحب نقل أخبار الخطبة والزواج..ألسن
النساء تناقلتها في كل مجلس وناد.. في العيادات العامة.. دكاكين البقالة والخضار.. ومجالس عتبات البيوت.. وكانت تصل التقارير له أولا بأول.. واستمع إليها استماع الخاشع في صلاته متأملا كل كلمة رُددت وفُسرت وعلّق عليها.. فَكَشْخَرَ كشخرةً قاسيةً وأقسم يمينًا غليظًا على أن يستمدّ من ذاته "قوة ذاته"؛ ليتمكن أن يُطلّق الفقر ثلاثًا.. طلاقًا أزليًا لا رجعة فيه.. وأن يبدله بالغِنى بشتى الوسائل والطرق.. وأن يثبت لهذه المحروسة صاحبة الظل الطويل أنه يستطيع أن يسبح في بحر من المال دون أن يغرق فيه. والتلاعب بالمال ليس أمرًا في غاية الصعوبة.. وبإمكانه أن يتزوج فتاة أخرى أجمل منها.. تعرّف على الصرّاف "موشيهْ" في مقهى من مقاهي "تل أبيب" والذي يشتغل في تبديل العملات الأجنبية وصرافة الشيكات. أخذ يراقب عمله حتى أتقنه في مدة قصيرة، ثم قويت العلاقة فصار العمل بينهما مشتركًا. ثم اتسع المال فأخذ يقرض الناس بالتقسيط المريح المرتبط بالفائدة التي يتم الاتفاق عليها مسبقًا.
ليلة زفافه أحرق أمام عروسه خمس أوراق من فئة المائة دولار بقشة كبريت واحدة.. تدفأ عليها ثم عفر رمادها على رأسها ومسح به وجهها ويديها في انتشاء وغبطةٍ.. ثم تمعن فيها تمعنًا غريبًا أثار فيها الشك وجعلها تحس بالخوف من مجهول ينتظرها. تذكر "سوسن" التي نعتته بكلمات جارحة ودمغته بـ"الكحتوت"..لا ولن ينساها طوال حياته، وتصورها تقف أمامه بحلة جلوتها البيضاء الملكية يقدم لها باقة من الزهور الملونة، ويناولها علبةً مليئةً بالذهب والجواهر ويلبسها عقدًا من مصنوعًا من لآلئ البحر الأحمر. وقال في نفسه:" ليتها تعرف من أنا الآن.. أنا لم أعد "كحتوتًا" ضعيفًا ولا فقيرًا بائسًا يا ابنة "أبو مظيفر" أفندي.
استيقظ حين آذن الفجر على الرحيل. ومع انبلاج الصبح، حزم أمتعة السفر وأخذ عروسه الجديدة وطار بها إلى أستانبول لقضاء شهر العسل، الذي كان يتمناه، وكان قد وعدها به من قبل وخطط له جيدًا.حين اتسعت به الدنيا اشترى أرض "عزبة الضباع" من أصحابها الذين حين عرضوها للبيع،

والتي دفعوا لهم فيها مائة ألفٍ من الورق الأخضر.. ولكن أبا القمر سارع إلى إضافة عشرة آلاف دولار أخرى وخرجت من نصيبه. وبنى عليها عمارة سكنيةً تتألف من عشر شقق، باعها وجنى من ورائها ربحًا كبيرًا.. ثم بنى بجانبها بيتًا كبيرًا شبيهًا ببيوت الملوك..

خرج القوم من قصره مكسوفين مخذولين، وقد شعروا أن دالتهم لم تجدِ نفعًا.. وآنئذٍ غشيتهم الدهشة وخالطهم إحساس بالاستياء والغضب والفشل. وارتفعت حرارة أجسامهم التي فاقت حرارة ليل تموز، وهم لا يدرون ماذا يفعلون. وأثناء توجههم إلى الجامع المجاور، انتظارًا لأداء صلاة العشاء، غمغم يونس بصوته المخنوق "المخنخن"، وهو يشعل سيجاره الذي لم يتوهج طرفه إلا بعد إشعال قشة كبريت ثانيةٍ قائلا:

_" يا الله! قديش المال بعمي البشر، وقديش بخلّي الإنسان يجحد!! ليش بحكي معانا هيك؟ كل الحق على إبراهيم الدوار. وأنا متعجب مِنُّه هذا الزلمي كيف أخذ هذا القرض مع إنُّه بيعرف إنُّه الربا حرام في حرام على الطرفين: الرابي والمرابي".

بعد أن أسكتهم الصمت القاهر لإرادتهم، دقيقةً واحدةً، هتف أبو راضي في ترحُّمٍ قائلا:

-" يا أبو فؤاد قديش قلنالك الزلمي غِلِطْ غَلَطْ إكْبيرْ، بَسْ كان محتاج كثير.. لا البنك قِبِل يعطيه ولا الناس شفقوا عليه وأعطوه، وهالمسكين بدو يجوِّز بنته. يعني شو يعمل؟ وتجهيز العروس اليوم بكلّف إكثير. والناس صاروا محكومين للعادات والتقاليد وللنسوان اللي ما بترحم".

-" من كان يصدق إنُّهْ هذا الشيء بصير في بلد مثل "أم المقاهي"؟! أنا في تصوري، لازم نجمع تبرعات من الناس ونبحث عن متبرعين من أهل الخير وعلى الأقل ننقذ البيت المرهون من الضياع. وبهذي الطريقة بنقدر ننقذ العيلة كلها من التشريد، وإن شاء الله ربنا يِعِينّا".

وضعت اللجنة أجندتها الأساسية في اجتماعها الأول.. وتجنّدت للعمل المباشر.. أبوابٌ وأبواب طُرقَتْ، ولم يلبث خطباء الجمعة من على منابرهم في المساجد فتشمّروا للوعظ والإرشاد. وجعلوا يحذّرون من عاقبة ارتكاب الكبائر والموبقات التي حرّمها الله على الناس ضاربين المثل تلو المثل، والحديث تلو الحديث، والآية تلو الآية. واندفعوا في خواتيم خطبهم يحثون المصلين على التبرع بسخاء لإنقاذ "العائلة المستورة". لجنة الزكاة قدمت ما استطاعت أن تقدم.

ولما يمضِ أسبوعان، حتى جُمعت ثلاثة أرباع المبلغ الذي اشترطه "أبو القمر" على ضيوفه، كي يتنازل لهم أمام المحامي، عن بيت "الدوار" وأملاكه التي رُهنت حين أُخذ القرض. والربع الآخر المتبقي تبرع به "عبد الكريم" صاحب السوبر ماركت الكبير- القريب من "دوّار العين"- على أن يسددوا له نصفه بالتقسيط المريح. وضع المال أمامه على طاولة مستديرةٍ وأحضر المشروب البارد.. وحين عدّه قال لهم:

-" يـا جماعـة! إنتـو بتعرفـوا اليـوم إنُّـهْ أهـم شـيء فـي الـدنيا هـو المـصاري. وصاحبك هو حبيبتك.. واللي معُـهْ فلـس النـاس بتـصفقلُهْ واللـي مـا فـي معُـهْ الناس بتطقعلُه.. وهيك هِيِّهْ الحياهْ إشو أعمل إلكم؟"

(نُشرت هذه القصة في جريدة "الاتحاد" -الصادرة في حيفا- يوم الخميس 18 /أيار /2006 العدد 279/62)

الراتب الأول

النقب!؟..
البادية!؟..
نعم إلى عاصمة النقب...
وإلى مدينة بئر السبع...
لقد سمعت عنها كثيرًا.. ما أروعها من لحظات!!.. سأسافر إلى حيث يعيش البدو.. وسأشاهد الخيمة.. والناقة.. والناي..
هذه خدمة عسكرية؟!
فليكن.. هذا ليس أسوأ ما في الوجود..
ولكن أنا لا أعرف أحدًا هناك.؟ وأين سأسكن؟
بإمكانك أن تتصل بأحد المدرّسين وتبيت عنده مدة قصيرة حتى ترتب أمورك..
هذا رأي مفتش المعارف..عظيم هذا رأي صائبٌ.. ونِعم الرأي.
حمل حقيبته وغادر قريته الوادعة الهادئة التي لازمها اثنتين وعشرين سنةً. فرسم في ذهنه كل ذكرياته وذكرياتها.. ورسخت في دماغه صورتها وصور أهلها بعد أن تصارعوا مع الزمن فهزمهم واحدًا واحدًا. وصوَّر في خياله شوارعها، وبيوتها وأشجارها التي استأنس بها فآنسته.. وتذكر الفاجعة الكبرى التي أحلّت بها ففجعتها بتسعة وأربعين شهيدًا.. رصاصات الغدر أزهقت أرواحهم فطارت عاليةً في السماء تشكو الظلم إلى بارئها.. إنها المرة الأولى التي سيغادر فيها قريته "كفر-قاسم"، قرية التاريخ والوجود.. قرية

الزيتون والفستق والبرتقال.. وهي المرة الأولى التي سينام فيها خارج بيته.. وهذه المرة الأولى التي سيفارق فيها أمه وأباه واخوته.. وأصدقاءه. غادر وهو يفضي إلى نفسه الخافقة فيقول:
-"الله يجزيك الخير يا أبي. . أصحابي استلموا وظائفهم منذ أسبوعين وعُيِّنوا في قراهم.. نعم في قراهم.. قرب بيوتهم.. أما أنا "الغلبان" فلا واسطة ولا يحزنون.. مش مهم.. الله يعوضنا عن كل شيء..
وتذكر قول والده وهو يسأله: "أتحب أن أُهان يا بنيَّ؟ هل يرضيك أن أطرق الأبواب المحرّمة؟؟ كرامتنا فوق كل شيء يا "راضي"...انتقل "راضي" من مكان إلى مكان.. كان ينزل من حافلةٍ ويركب أخرى.. يخرج من محطةٍ ثم ينزل في محطة ثانية. وهو يحس أن عيون هؤلاء الجنود - الذين يتكدّسون داخل الحافلات وهم يسافرون إلى قواعدهم العسكرية- تراقبه.. وكانوا جميعًا يتحادثون بالعبرية.. فالتزم الهدوء وامتنع عن القيام بحركات تثير الانتباه والشك، فاستحضرته الذكريات إلى حكاية والده أثناء عودته من عمله قبل بدء المجزرة بلحظات قليلة، ولما داس عتبة بيته خرجت أولى الرصاصات القاتلة. وانكب الناس يغلقون الأبواب وهم ينتظرون عودة أحبائهم من أعمالهم.. فمن عاد .. عاد. ومن حُصد، قُبر من غير جنازة.. قبرته أيادٍ غريبة.
ذكريات لم يستيقظ منها إلا بعد أن وصل إلى المدرسة.. هي ذات المدرسة التي حدثهم عنها معلم اللغة الإنجليزية في الصف السادس.. وتقع في ذات المكان الذي وصفه لهم.. على ربوة تملكها عشيرة تقيم في الجنوب الشرقي من بئر السبع. تدمدم عليها حرارة الشمس الساطعة فتقول لها:-
ابشري أيتها الأرض النائية، اغسلي وجهك بالماء الزلال..
وانهضي وهللي وحيّي "الطِّيف" الذي جاء ك من بعيد من أرض الحضر..
اقبلي هذا العنصر الجديد في حِماكِ، وتقبلي منه البذور
التي سيغرسها في أرضك كي تنبت فتنمو وتثمر. وكلي من طيبات هذه الثمار...
كانت قوافل الحمير التي تثير النقع خلفها دون أن تأبه بهجير الصحراء، كأنها جيش زاحف أدرك الظفر جهاده، أو كأنها في حفلة سباق للحمير المنهكة من طول المسافة وصعوبة السباق، تنقل الطلاب إلى المدرسة وهي تنوء بهم وتنأى عن مضارب خيامهم- مندفعةً نحو المدرسة. وتأتي بهم من جميع بقاع الأرض اليابسة.. لم تكن الطريق بأفضل من طرق قريته. حالها كحال طريق البِرْكة، تنتشر فيها الحفر الصغيرة منها والكبيرة، وتحفها الحجارة والصخور من جانبيها، وتغمرها أنواع كثيرة من الحصى.. وثمة قطعان من الماشية المنتشرة على سفوح الروابي المزروعة بالحجارة الصماء – ترعاها فتيات قاربت أعمارهن من الخط الرابع عشر وهو خط الزواج في تلك البقاع. لمح واحدةً تجري وراء نعجةٍ لتردها إلى صفوف القطيع، تناولت حجرًا وضربتها به، ثم رجعت طائعةً مستسلمة. وشاهد ثانية يبدو أنها في سن "فاطمة" ابنة عمه، تجلس على حجرٍ كبيرٍ وتمسك في يدها عصًا، تراقب أغنامها واضعةً يدها الثانية على خدها كأنها تفكر في الحال التي آلت بها إلى هنا.

دُقَّ الجرس – وكان جرسًا يدويًا وقد ذكّره ببائع الكاز المرحوم "عبد المعطي" حين سرق ابن عمه الجرس وأخذ يطوف به الأحياء فتسارع النساء بالخروج تطلب كازًا، فلما لم تجد إلا "فراسًا" كانت "تَكْشُبُهُ" بأسوأ ألفاظ الشتائم وأصعب أنواع الدعوات- واصطف جيش الطلاب في طوابيرهم وشرع أحد المعلمين يغترف من قاموس النظام المدرسي حين ساد الصمت وخيم جوٌّ من المهابة- وصبُّ لهم من وجباته الصباحية الساخنة .. وصاح بأعلى صوته آمرًا كأنه قائد فرقة عسكرية:

انتظم!.. أسبلْ!.. استرح!.. استعد!..

تحدث المدير مع "راضي" وأوصاه أن يُعَلِّم طلاب الصف الرابع والخامس والسادس، اللغة الإنجليزية ويُدربهم على نطقها بصورة صحيحة وكتابتها من غير أخطاء إملائية، وأن لا ينسى قبل كل شيء أن يغرس في نفوسهم بذور الشموخ والقيم.. وباشر المعلم عمله..

كان الراتب متواضعًا.. ولا بد أن يكون الراتب الأول في حياة الشاب كالثمرة الأولى الناضجة يقطفها الفلاح بعد أن يعتني بها مدة طويلة.. فتخطف بصره فيظل يتصورها ويحلم بها شاعرًا أن عمله لم يذهب هباءً منثورا.. جميل أن يحصل الإنسان على مال.. ولكن الحصول على الراتب الأول هو أجمل وأبهج ما في الوجود.. ست مائة شيكل!! نعم ست مائة شيكل سوف يضعها في يد والده الذي عمل وكدَّ وتعب ليرى ابنه مشاركًا في إعالة الأسرة.. ولطالما تمنى أن تأتي هذه اللحظة ليساعد والده في حمل الأعباء الثقيلة، والذي أنفق عليه الكثير، فأحسَّ أنه آن

الأوان لردّ الجميل.. سوف يحتفل بها ويدعو اخوته جميعهم للمشاركة في هذا الاحتفال. سوف تملأ رائحة الشواء جو الحارة. وكان المعلمون "الشباب" يخرجون في ساعات العصر إلى المتَنَزّه القريب لقتل الوقت أولا، ثم لممارسة اللعبة التي أحبوها مع بعض الشباب من اليهود الذين قدموا إلى بئر السبع من روسيا ومن جورجيا وحطوا عصا ترحالهم فيها.. لعبة كرة القدم.. ولم تكن ثمة لعبة أحب إلى نفسه من تلك اللعبة التي تجعله يتراكض معهم وراء كرة مطاطية متدافعين ليركلوها بأقدامهم.. حقًا مسلّية..

سمعة الحي الذي كان يسكنه راضي لم تأت من فراغ.. الفقر.. السرقات.. المخدرات.. الزنا.. كلها جعلت أسعار الشقق في الحي الواقع شمال المدينة والذي يطلق عليه اسم "الحي الرابع"، رخيصة.. ولأن العائلات الشريفة عزفت عن السكن فيه انخفض الأجر الشهري أيضًا، فتدفقت فيه جموع الطلبة والمعلمين العرب الوافدين من الشمال. بنات الحي التي لا تقارن إلا بالزهور وتنكشف منهن أصول نهودهن، سقطت بين يدي الرذيلة.. نساءه اللائي يعرضن نصف أردافهن يترددن على حاويات القمامة كل صباح وكل مساء فينبشنها مائة مرة للبحث عن بقايا طعام أو فتات خبز وقعت بين فكي الجوع.. شبابه المدخنون الذين يجلسون كل مساء على حواف الطرق ولا يهنأون إلا بزجاجات خمر، عزفوا عن العمل وامتهنوا حرفة النشل، والتسول

والاحتيال.. فالمال مال الله.. أيعقل أن يكون هذا.. في عصر مثل هذا.. وفي بلدٍ كهذا..

كان راضي يرغب في أن يشدَّ عزمه ويتجرأ ويطلب من والده أن يخطب له "لبنى" ابنة خاله.. لبنى ذات العينين العسيليتين والوجه العاجي والأنف الرقيق والخدود الناعمة.. كثيرًا ما تمنى أن تكون من نصيبه.. يحتضنها ويبصم بشفتيه قبلة رقراقة لا يظمأ بعدها أبدًا.. إنها أجمل ما في الكون من العذارى.. إنها أجمل ممن تغنى بهن الشعراء.. أيعقل أن تكون هند وعبلة وليلى وخولة وهند أجمل منها!! وكثيرًا ما دعا الله في سره أن لا تضيع منه.. أجل..

سيفعل ذلك.. وهل في هذا عيب!!.. سيطلب منه ذلك ولكن ليس قبل أن يسلمه الراتب الأول.. نعم، لقد أخذ يشعر بوجوده منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه أرض النقب..

ذات ليلة خميسٍ غادر الشباب شقتهم، واتجهوا إلى قرية تل السبع. حملوا معهم هديةً ثمينةً اشتروها من المجمع التجاري الكبير الذي بني حديثًا بجانب محطة الحافلات المركزية. وكان الأستاذ "سلامة" قد أعدّ لهؤلاء "الفلاحين" طعامًا دسمًا جعل شهية الصبية تنفتح ونفوسهم تتمنى لو أن الطعام يقدم إليهم كي يلتهموه في دقيقتين.. لأن الزيارة لم تكن مجرد زيارة.. وهي ليست زيارة صدفة.. هي زيارة تهنئة بالمولود الجديد "أحمد".. وهي المرة الأولى التي يزور المعلمون فيها بيته. إذن ينبغي أن يبيض وجهه أمام "الفلاحين"، ولذلك دعا أقرباءه لاستقبالهم في "الشِّق" ومشاركتهم في تناول العشاء. كان من عادة البدو أن يتناولوا الطعام بأصابعهم.. لم يكن يدرك أن هؤلاء "الفلاحين" لا يتناولونه إلا بواسطة آلات معدنية.. فطلبوا الملاعق فلُبي الطلب وأحضرت لهم في الحال.

لم تدم الزيارة إلا ثلاث ساعات فقط.. إذ شعر الشباب أنهم وقعوا في ضيقٍ وحرج شديدين، لأنهم لم يكونوا على دراية بطباع البدو وعاداتهم.. ومعرفتهم بها هي معرفة سطحية.. فما أن استأذن "علي" باسمهم بالانصراف، حتى شعر الجميع بالفرج والارتياح..

لم تكن شقتهم حين غادروها مضاءةً!! وزمان التبذير ولّى منذ مدّة. والمعلمون في غربتهم الأولى يحسبون لكل قرش ألف حساب. لأنهم بحاجة له ليخفف عنهم من عبء أجرة السكن وضريبة البلدية عدا عن فاتورة الكهرباء والتلفون والغاز.. ولكن النور المنبعث من نوافذها المفتوحة يدل على أن هناك من دخلها في غيابهم!! من يكون هذا؟ صاحب البيت؟؟ لا لا.. لأن "السكاكر" قد غُيّرت منذ اليوم الأول.. ولا يمكن أن يدخل البيت من غير إذن منا. هل اقتحمته الشرطة لأننا عرب؟ وهذا أيضًا لا يعقل، لأننا نسير على الصراط المستقيم. والجيران يعرفون أننا معلمون. لا يضايقوننا ولا نضايقهم. إذن من يكون يا تُرى؟ ما أن فُتح الباب حتى بدت الشقة كأنها أشبه بساحة حرب انتهت فيها المعركة وانسحبت منها الجيوش منذ هنيهة. الخزانة أُفرغت من كل شيء، الملابس تناثرت في جميع الاتجاهات والكتب تكدست في

زاويـة الـصالون، والأوانـي بُعثـرت علـى مـصطبة المطـبخ. واختفـت الأجهـزة الكهربائية الصغيرة عن الوجود. وتذكر راضـي راتبـه الأول فأسـرع إلـى حقيبتـه فوجدها قد تحولت إلى أشـلاء. تحسـسوا المكـان فوجـدوا نافـذة المطـبخ قـد كُسرت وعليها بقع مـن دم اللـصوص. ثـم أُسـتدعيت الـشرطة.. ولكـن لا يـزال التحقيق جاريًا حتى الآن.. نعم إلى الآن.. ولا يزال الشباب في انتظار الجـواب. وكان هذا الحادث قد مرّ عليه عشرون خريفًا. لم يتـذكره راضـي إلا بعـد زيارتـه الأخيرة لبئر السبع..

(نُشرت هذه القصة فـي جريـدة الاتحـاد- الـصادرة فـي حيفـا- 23/أيـار/2006م العدد 283/62)

حفلة زواج

جلس المدعوون فـي الأمـاكن التـي خصـصت لهـم، فـي غرفـة الـضيوف.. أمـا عددهم فلم يكن ليتجاوز العشرة أنفارٍ، لولا أن حضرت صاحبات العروس اللاتي دُعين إلى الحفلة منذ أسبوعين، سيَّما: فـاتن، ونـرجس، ومـريم. وفيمـا جـئن إليها ممكيجاتٍ يحملن هديـة مـشتركة.. ويلبـسن ملابـس الـسهر الـسوداء.. تبـادلن مـع بعـض الحاضـرات القـبلات الحـارة وصـافحن الحاضـرين فـي خجـل مصحوب باحمرار والوجوه وارتباك فـي الحركـات.. جـيء بالمـشروب البـارد أولا ثم بالكعك والفاكهة والحلوى.. وشرع المغني يضرب علـى أوتـار عـوده ويغنـي غناءً جميلا.عذوبة صوته أطربت القلوب.. الكفوف صفقت بجناحيها مـع موجـات العزف الساخنة في صعودٍ ونزول. لـم تكـن الألحـان العذبـة مـن الألحـان التـي اعتاد الناس عليها في أعراسهم اليوم، بل كانت من النوع القديم التي أُشتهر بها عمالقة الغناء العربي قد أفاءت على البيت.

وجلس العروسان في صدارة الجمع المحتفل، يتبادلان أطراف الحـديث، وُضعت أمامهما طاولة مشرشفةٌ عليها مزهريـة مملـوءة بـوردٍ طبيعـيٍّ.. طُلِـبَ منهما أنْ يرقصا في وسط الـدائرة، فلـم تـسعفهم الـذرائع التـي تـذرعوا بهـا.. فلبيا الطلب مكرهين على ذلك. رقصاتهما لم تكن منتظمـة. أردافهمـا تمايلـت يمنةً ويسرةً.. وحركًا سيقانهما في جميع الاتجاهات دون أي تنسيق. إذ ليس للعريس مع تقدم سنه خبرة في قوانين الرقص.. ولا معرفة في فنـون الغنـاء..

لكن الطرب- المسترسلة أنغامه وينساب انسيابًا مسرفًا- قد نشط في الأجساد البشرية وسرى مفعوله في أطرافها.
حين انتصف الليل على الدنيا ومن فيها ..ليل منتصف نيسان.. تُوُقِّفَ العزف، وقدّمت الأفواه قُبلات التهاني والتبريكات للعروسين الطازجين وتُبودِلت اللفتات من العيون القرمزية، ورُسمتْ على وجهيهما انفعالات متلوِّنة. وكانت الأم آخر المودِّعين لهما إذ خرجتْ وهي تدعو لهما وتتمنى من الله أن يوفقهما في حياتهما وأن يرزقهما الأولاد، وفي نفسها إحساس بالراحة والتخلص من الحِمل
الثقيل الذي كانت تحمله، ومن الهمِّ الذي أصابها والذي يصيب كل أم حين توشك ابنتها أن تتقلد قلادة العنوسة والبوار، ثم يغشاها هاجس الخوف من كلام "الستات" ذوات الحسب والنسب.. وصاحبات "الحظ السعيد" طبعًا.. واللائي تمقتهن مقتًا شديدًا.. وفي داخلها اعتزازٌ بالنسيب الجديد الذي امتلأت جيوبه بالدراهم والدولارات، وهي تطمح أن يصيبها شيء من سعادته..
وُدِّعَ العروسان وخرجت وهي تردد كلامًا كثيرًا، وتمتمت بكلام لو دقق السامع فيه لعرف أنه دعاء للعروسين لتحصينهما بحرزٍ رباني، من عيون الحاسدين والحاسدات.. وفي يدها وعاءٌ حديديٌّ ينبعث منه في هواء كل زاويةٍ من زوايا البيت، دخان بخور.. فالزواج بالبخور هو الزواج الذي تكتمل صورته.. وتطرد به الشياطين فيصبح زواجًا مباركًا.. وليس زواجًا صوريًا..
وتصورت ابنتها ترتمي في حضن عريسها المتأنق في ملابسه ويضمها بين ذراعيه في غبطةٍ وابتهاج ثم يطبع على جبينها قبلات كثيرة. وهي، تشعر بالسعادة الكبرى.. تصوُّرًا أي تصور.. تشعر بابتهاج ابنتها كأنه ابتهاجها هي نفسها.. تشعر به نشوة عميقة عارمة اللهفات.. إن حسن الظن بنسيبها الجديد.. وثقتها به.. هما اللذان جعلاها تحسُّ بهذا الإحساس..
كانت ثمة امرأة -تذكرت صورتها حين غادرت الحفلة وحين ركبت سيارة ابنها الذي كان في انتظارها- قد "غلّفت" عليها فرحتها.. جارتها "عليا الفارسية".. وتذكرت كلماتها الجارحة:
- " ياللي بنتك بايرة"
فقد عايرتها ذات مرة في ابنتها حين تخاصمتا بعد أن قامت الثانية بإحراق القش على عتبة بيتها، فانبعث منه دخانٌ كثيفٌ، اختنقت الحارة منه.. إذ بعد أن ناصبت كل واحدة العداء لجارتها نصبت مدافعها الهجائية الرشاشة، فتراشقتا بوابل من الجمل النابية، والألفاظ القاسية التي نسجت من ألياف خاصة وكتبت في معاجمهن بمداد سحريٍّ لم يهتدِ إليها أحد من قبل، فأطلقت عليها "الفارسية" قنبلة "إنشطارية" من النوع الثقيل حين قالت لها:
- " طز فيكِ يا اللي بنتك بايرة.. ما فيش حدا بتطلّع عليكِ ولا عليها"..
انسحبت "هالة" يومها من المعركة متقهقرة إلى بيتها..

انسحابًا مفاجئًا.. عادت وهي تشعر أن أطرافها قد تخشّبت وأوداجها أخذت تشخب دمًا.. رجعت وهي تحسُّ بأنها تسربلت بسربال الهزيمة النكراء.. وانزوت في غرفتها تندب حظها البائس..

وصارت كلما حلّت بها مصيبةٌ ولو صغيرةٌ تشفَّت بها "الفارسية" أيما تشفٍّ.. وأظهرت لها غبطتها برفع الصوت المنبعث من مسجِّلها عاليًا ليجلجل في أذني "الهالة"، مماحكة بها.. ولم تحسب حسابًا لنهنهات زوجها وأولادها.. واتخذت لنفسها رصيدًا هائلا من المماحكات والحيل؛ لتستعين بها وقت الحاجة. كانت تنهض مبكرةً وترمي القمامة قرب منزلها وتفرُّ هاربةً قبل أن يراها أحد. وفي حالات كثيرة متقاربة كانت تحتجز امرأة عابرة من ذلك الشارع، وتفرض عليها أجندة حوارها، فتبادرها بالسؤال عن حالها وحال زوجها وأولادها.. ثم تنبري في نشر الأخبار والحديث عن انتصاراتها على الجارة " النتنة". وعن فخرها بأولادها وبناتها، فترفع صوتها شيئًا فشيئًا ليصبح راعدًا مدويًّا، وهي تقول في طيّاتِ نفسها: -" الحكي إلك يا كنة واسمعي انتِ يا جارة".

وتلك تنفخ وتقول لذاتها: " أمَا آنَ لهذه المرأة أن تكف عن هذا الحديث فتتركني وشأني". بيد أن "هالة" كانت تعزي نفسها وتعبِّر لأولادها عن كلمات الشجب الاستنكار الشديدين قائلة:

-"دعوها وشأنها!! هذي امرأة مجنونة.. عقلها لا يريحها.. مريضة نفسيًا.. الظاهر أنها نسيت أن تتناول دواءها اليومي.. هي بحاجة إلى طبيب نفساني.. بحاجة إلى سايكولوج.. أعصابها تعبانة.. بحاجة إلى مستشفى المجانين.. دعوها تعوي مثل الكلاب الضالة..

الجارتان كانتا تنتميان لعائلتين مختلفتين اختلافًا سياسيًا قديمًا. وتعود جذوره إلى زمن بعيد.. إذ تتنافسان في كل مرة على منصب رئاسة البلدية.. وتتداولان الحكم لا بإرادتهما، بل بإرادة بعض العائلات الصغيرة التي ترجح الكفة في اللحظات الأخيرة حين تميل مع المرشح المناسب.. فإذا ما بقي لموعد الانتخابات حولٌ واحد.. استعدت الجارتان للمواجهات العسكرية.. بدايتها حرب باردة.. ثم تتحول شيئًا فشيئًا إلى حرب ساخنة طاحنة.. بدايتها تعليق اللافتات وصور المرشحين.. ثم تنتقل إلى الاستماع إلى خطبهم والأغاني التي سُجلتْ من أجلهم وتنتهي بالجدال الحاد والاشتباك بالأيدي..وحدث ذات مرةٍ، أن أخذت "الفارسية" أولادها وغادرت الحارة في زيارة خاطفةٍ لصديقتها "خولة"، التي تسكن في حيّ الكينا. ولما عادت وفتحت باب بيتها، إذ وجدت مادة غريبةً ممزوجةً بالعجين، بلونٍ أصفر مائل إلى اللون البني، مسكوبةً على العتبة بشكل متعرّج. في تلك الساعة جُنَّ جنونها واندلقت نحو بيت "الهالة" "تكشب" وتلعن، وتهدد وتتوعد؛ متهمةً إياها بوضع السحر في بيتها؛ لتدمر به عائلتها..

على كل حالٍ، عادت إلى بيتها وكانت مترعةٌ بمشاعر الفرحة المختلطة بالإحساس الزائد بالإرهاق.. ألقت نظرة على بيت "الفارسية" فوجدته يقف صامتًا مظلم الجدران.. ووجدت نافذته مفتوحة ينبعث منها نورٌ

خافت.. فلاح من جانبها الأيمن شبحٌ يحاول أن يخفي ظله بصفيق الحائط الداخلي. سرعان ما عرفتْ أن الطيف، إن هو إلا جسد "الفارسية"، التي استيقظت على هدير السيارة، وأسرعت إلى النافذة مكشوفة الرأس، في ثياب النوم، وأخذت تتلصص في صمتٍ وتسترق السمع في خفية وهي تظن أن أحدًا لا يراها.. ثم قالت لزوجها: صاحبتها "فتحية" حكت لي عن كل شيء. زواج سرّي!! زواج بَلْفقة!! من غريب ما بدّو حدا من أهله يعرف. واستأجرت له بيت، وراح يزورها مرتين في الأسبوع.. بتضحك على الناس وبتقول بنتها اتزوجت. ومن ابن ناس. ياللا! الزواج مش عيب..

الهزيع الأخير

وثمة قلق مُدلْهِم انتاب قرية الفلماية حول مصير "إبراهيم الأشقر" الذي اختفت آثاره منذ أربعة أيام ولم يُعرف مصيره.. أخوه الشهيد "جمال" عُرف مسكنه الأزليّ في الجهة الشرقية من مقبرة الشهداء إلى جانب قبر الشهيد "عطا".. أما هو فلا قبر يضمه ولا تراب يدفنه.. وأنباء الغائبين بدأت تتكشّف للمستضعفين شيئًا فشيئًا.. "محمد" فرّ من الجنود وهو مصاب في ساقه فلجأ إلى كرم البيدر وبقي مختبئًا على غصن زيتونة ثلاثة أيام بلياليهن.. وخالد نام في مغارة رأس الخروب.. وعصام تسلل إلى قرية "الساهرة" ولجأ في أحد بيوتها.. إذن فأين اختفى "إبراهيم" يا ترى؟؟

نساء القرية ومنذ اليوم الأول، أخذت تنوح نواحًا مستمرًا لا ينقطع.. وبيوت أهل القرية جميعًا لفّتها كآبة سوداء قاتمة.. وأظلم النهار رغم ارتفاع قرص الشمس في كبد السماء.. واقشعرّت الأبدان حينما سمع المستضعفون الخارجون لتوّهم من حصارهم قصصًا كثيرة عن أبنائهم العائدين من أعمالهم حين ذبحوا دون أي ذنب اقترفوه.

أيُ حزنٍ هذا الذي حلّ بأطفال فقدوا أباهم بين عشية وضحاها؟ .. كيف لا يتضاعف الحزن وما زالت نساء القرية تنوح نواحها المستمر؟ وأي ألمٍ ذاك الذي أفقد صواب أهل حلموا بالعيش كما يعيش باقي البشر؟ وأيّ غم راح يجثم على صدور الفلاحين الضعفاء؟ و"حليمة"، ابنة خالتي، الحامل المسكينة، التي أطلقوا الرصاص على بطنها فأخذت تسبح في دمائها ثم اخترقت صدرها رصاصات الموت الزكام، تركت في نفوسنا جرحًا عميقًا لن يندمل إلى أبد الآبدين.. وكأننا لا زلنا نحن نتصورها ونسمع صدى لصوتها وهي تقول لقاتليها: "حرامٌ عليكم! لماذا تقتلوني؟ ارحموا جنيني الذي في بطني!!"

صحيح أن بعض الأسر لم يرتفع منها أحد إلى السماء.. ولكن المصاب هو مصاب الجميع.. مصاب جلل.. والأعصاب المنهكة قد بدت على وجوههم جميعًا.. ويتساءل أحدهم بعصبية: "يا إلهي! أيدفن شهداؤنا نحن دون أن نراهم؟" ويردّ عليه آخر في براءة وبساطة: "ولكن ماذا يفيدنا هذا لو رأيناهم؟ ولو خرجنا من بيوتنا لقتلونا معهم".. وكانت أنباء المجزرة تتردد في الصحف على أنها مجرد مشاغبات ومحاولات لخرق نظام منع التجول قام بها الفلاحون العرب في قراهم القريبة من الخط الأخضر.. وأنباء الجرحى يتلهف الناس إلى سماعها لحظة بلحظة وفي كل مكان..

ولعل الصدمة التي جعلتنا نعيش في خيال دائم وتفكير عميقٍ وهمٍ خانقٍ لم تثن عزمنا على تفقد جرحانا في المستشفيات ومتابعة أخبارهم أولا بأول..

آهٍ ثم آهٍ ثم آه..

آهٍ من واقع مرير وحُكمٍ ظالمٍ وبُئسٍ لا يطاق.. إذا كان الناس قد بكوا على جراحنا،فماذا يفيدنا بكاؤهم؟

مسكينٍ أنت يا إبراهيم..

كم كنتَ صديقًا حميمًا وأخًا وفيًّا..

أي قلب طيب أنت تحمله في صدرك؟؟

كنا نحن الشباب نرجع من المقبرة فنجلس واجمين قرب المسجد وكأن على رؤوسنا الطير، لا يشتهي أحد منا أن ينبس ببنت شفة.. ولا تستطيع نفوسنا أن تستسيغ لقمة واحدة زمن المحنة.. ونساء القرية تنوح نواحها المستمر كأنه عرسٌ أزليٌّ.. وبعضهم أشفقوا على دوابهم الجائعة الممنوعة من التجول منذ خمسة أيام، فخرجوا بها إلى الحقل القريب لترعى.. ولما حانت ساعة ظهر الخميس، وبلغت قلوبنا الحناجر، إذ طلع علينا "محمود الخليلي" يبشرنا بوجود "إبراهيم" جريحا وهو يعالج في المستشفى..

انطلقتُ مع والده وعمه للبحث عنه في المستشفى فوجدناه خائر الأعصاب.. وقد ضمدت ساقه وذراعه.. ما إن رآه والده حتى أكبّ وجهه عليه وأجهش بالبكاء.. وهو يغمغم: "مات جمال يا إبراهيم.. رحل عنا ولن يرجع.. رحل وهو يسأل عنك يا إبراهيم.. خرج يبحث عنك وكسرة الخبز في فمه".

لم أستطع أن أتمالك نفسي فاتخذت لي زاوية في الغرفة وأجهشت فيها بالبكاء..

ليس هينًا أن يفقد الإنسان عزيزًا .

وليس هينًا أن يفقد الإنسان أناسًا عاش معهم وأحبهم.. وما أصعبها من لحظات حين يفقد الإنسان عزيزًا وهو بين ذراعيه ولا

يستطيع أن يحرك ساكنًا..

عند سماعه أن نظام منع التجول سيفرض بعد نصف ساعة، ترك "جمال" ابن الثالثة عشرة طعامه، وخرج للبحث عن أخيه "إبراهيم".. فوجد نفسه أمام جنود يصوبون أسلحتهم على أشخاص وقفوا في صف على جانب الطريق ورفعوا أيديهم في استسلام إلى الأعلى. ولما عرف بعضهم ونظر،

وجد أخاه "إبراهيم" يقف في وسطهم مطيعًا صامتًا.. لحظات قليلة مرّت ثم نطق قائدهم نطق قاضٍ يحكم على المتهمين حكمه الأخير وهو يشفي غليله ويصب حمم غيظه عليهم: "أحصدوهم".

واندفعت رصاصاتهم تحصد ثم تحصد ثم تحصد..

وسقطت سنابلنا الخضراء على الأرض السوداء.. وراحت دماؤهم تروي ترابها من جديد وعيونهم جاحظة نحو السماء. ولسان حالها يقول: رباه أي ذنب اقترفناه حتى يتم لنا هذا القضاء؟ اندفع الشاب وأكبّ على أخيه النازف المصاب.. وضمّهُ بين ذراعيه ثم بكى.. وبكى وهو يصيح في غضب: "قتلوك يا أخي؟ قتلك المجرمون؟ لا تمت يا إبراهيم!!".. أحدهم تقدم منه وضغط على زناد بندقيته فخرجت منها رصاصتان اخترقتا رأسه ثم أسلم روحه لله.. وتراءى لإبراهيم في تلك اللحظة أنه يقف أمام الواحد الديّان يبتهل إليه ويصلي طويلا حتى يُؤْذنَ له بالدخول إلى تلك القصور الفاخرة، وتحيط بها جنان ناضرة.. تتجه نحوها كوكبة من الشهداء حيث فُتِّحت لها الأبواب وفُرِش لها البساط الأخضر.. وقال لهم خَزَنَتُها: "سلامٌ عليكمْ.. سلامٌ عليكمْ طِبْتُمْ.. فَادْخُلوها خالِدينْ" .. أخذوا يسيرون في خطى ثابتة متناسقة رافعي هاماتهم وتلألأت وجوههم المبصرة ضاحكة مستبشرة، يتقدمهم الفتى "جمال الأشقر" يرفع بيده اليمنى علمًا أبيضًا خفاقًا عاليًا كُتبت عليه عبارة واضحة باللغة العربية: "الحمد لله الذي صدقنا وعده".. وتعزف لهم فرقةٌ موسيقيةٌ خاصةٌ السلامَ الرباني ترحيبًا بقدومهم.. تحفهم الملائكة من كل جانبٍ.. يتقدمون وهم يحمدون الله وينشدون نشيدهم الوطني الجميل:

بل أحياء بل أحياء بل أحياء عند الله بل أحياء بل أحياء

ثم أُغلقت الأبواب واستدار إبراهيم وأخذ يجري ويجري نحو دنياه فوجد الأبواب مفتوحة ما إن دخلها حتى وجد نفسه في ذلك الهزيع الأخير من الليل ممددًا على سريرٍ في المستشفى، وانبثق الفجر عليه وعاد إلى دنياه حزينًا، ليسمع عويل نساء قريته المستمر.. ذلك العويل الذي لا ينقطع..

صدر للكاتب:

العريس والجني- (مجموعة قصصية) -2005

الترقيم الدولي
I.S.B.N.
965-91005-0-7